

54

روايات مصرية للجيب

و. محمد خال الزوفية

فانتازيا

Looloo

www.dvd4arab.com

عبقري
آذر



(عبير عبد الرحمن) شخصية عادية إلى حد غير مسبوق .. إلى حد يخطف الأبصار .. إنها الشخص الذى نتمنى ألا نكونه حين نتحدث عن أنفسنا .. الشخص الذى لا يتفوق فى الجمال أو القوة أو البراعة أو الذكاء .. لكن لا بد من شيء ما يميزها وإلا لعاشت وماتت دون أن نسمع عنها .. ثمة أبطال قصص يمتازون بالقوة .. ثمة أبطال يمتازون بالذكاء الخارق .. ثمة أبطال يمتازون بالحظ العاثر .. ثمة أبطال يمتازون بأنهم لا يمتازون بشيء .. ويبدو أن (عبير) من هذه الفئة الأخيرة ..

فى نقطة واحدة تفوقت (عبير) علينا .. إنها تملك ذلك الخيال الشاسع بحجم المحيط ، وتملك فكرة عن أكثر العوالم الخيالية التى أبدعتها قريحة الأدياء والفنانيين والسينمائيين ومصممي الألعاب ، كما أنها امتلكت ذلك الجهاز الغريب الذى يولد الأحلام ، والذى لا يصلح إلا لها فى الواقع ، وبهذا غدت أول مخلوق بشرى يستطيع ارتياد تلك العوالم الساحرة ، بل يشارك فيها كذلك .. ومن البدهى أن (عبير) صارت تنتمى لـ (فانتازيا) أكثر مما تنتمى لعالمنا .. وبالنسبة لها لم تعد مشاكل الواقع إلا منغصات تتخلل فترات الحلم الأكبر الدائم فى (فانتازيا) ..

إن (عبير) كريمة النفس ؛ لهذا لن نتركها هنا وحدنا مع واقع لا يتغير .. سوف تصحبنا فى رحلتها .. سوف نعبّر معها

عالم المرأة الساحر مثلما فعلت (أنيس) يوماً ما .. سوف تقابل - ونحن معها - العقرى المخيف (دستوفسكى) وتجلس فى مجلس واحد مع (أرشميدس) و (الخوارزمى) و (أينشتاين) .. سوف يشرح لها (فرويد) نظرياته وهو يدخن غليونه الذى أصابه بالسرطان .. سوف تمشى مع (أفلاطون) فى بستان مدرسته .. ستحلق مع (طرزان) فوق قمم الأشجار السامقة ، وتثب مع الرجل العنكبوت من فوق ناطحات السحاب .. ربما تخدعها الساحرة الشريرة كى تلتهم التفاحة ، أو تهدد المقصلة عنقها ، ولربما تضع قدميها على تربة المريخ الحمراء ، أو تغطس فى كرة أعماق الدكتور (بيب) .. ربما تفتح قبر (توت عنخ آمون) أو تحارب جحافل المغول ..

إنها (فانتازيا) حيث القواعد الوحيدة للعبة هى : لا قواعد .. وحيث الحدود الوحيدة لرقعة الخيال هى : لا حدود ..

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافذ الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى

1- إلى الفرار ..

« ما ينبغي أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونا ،
وإنما ينبغي أن نعرف الشعراء أو ننكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا
المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء » .

طه حسين

قالت له (عبير) :

- « ثلاث زوجات .. ثلاث حالات طلاق .. لا تقل لى إتهن
جميعاً سيئات .. كانت هناك فرصة 30% أن تكون واحدة منهن
رائعة ، ولكن عجزك عن العثور على زوجة مناسبة يدل بلا شك
على أنك مضطرب .. اغفر لى تبسطى لكن هذه هى الحقيقة » .

تحسس الكدمة على وجنته اليسرى ، ثم قال لها وهو يقلب
الشفاط فى كوب العصير :

- « هناك أشخاص سيئو الحظ إلى درجة لا توصف .. »

- « وهناك أشخاص مضطربون نفسياً إلى درجة لا تصدق .. »

- « كلنا نخطئ .. لكن الرجل الذكى هو من يصحح أخطاءه .. »

الخيال والليل والبيداء تعرفنى ...
والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ
أنا الذى نظر الأعمى إلى أذى ...
وأسمعت كلماتى من به صممُ

- « والرجل الأذكى هو الذى يعرف متى تكون الأخطاء عسوية على التصحيح .. »

ضحك طويلاً وضافت عيناه من خلف نظارته السوداء .. هى تراها بوضوح من خلف الزجاج الأسود .. ما زال الوغد وسيماً .. قال لها :

- « هل تعرفين ما أشعر به ؟.. كأنها مباراة (اسكواش) .. أنت ترددين ببراعة كراتى وتحاولين أن تسحقينى .. كلما قلت شيئاً وجدت لى رداً مسكناً .. »

امتصت بعض العصير .. عندما نكون قلقين أو مشغولى البال نشعر بأن ما يدخل الفم حمض كبريتيك مركز .. سمعت أمعاهها تحتج غضباً ، لكنها أخرجتها .. اشربى يا بلهاء .. اشربى .. يجب أن تعرفى من القائد هنا ..

ثم قالت :

- « أنا لا أبحث عن الردود المسكنة .. لكنها تتدافع على لساتى .. هناك دم يسيل من طاقة أنفك اليسرى .. »

أخرج منديلاً ضغطه على أنفه ، بينما تحسست هى شعرها من تحت الحجاب الذى وضعته منذ عام ، وقالت :

- « نحن نشيخ .. ألا تفهم هذا ؟.. إبنى أتقدم فى العمر .. أمس وجدت شعرة بيضاء ، برغم صغر سننى .. كلما شابت شعرة احترق جزء من سداجتنا .. لهذا (عبير) التى تعرفها تغيرت جداً .. »
ثم قالت كأنها تبصق :

- « لا تستطيع التخلنى عن زوجتك بهذه البساطة كأنها عقب لفافة تبغ ، ثم تتوقع أن تعود لها لتجدها تنتظرك فى مرح مشرقة الوجه .. »

- « لم أتوقع هذا .. توقعت عاصفة من الغضب والضيق ، لكنى توقعت أن أجتازها لأبلغ تلك الجزيرة .. قبلك .. لكن كما يقول المتنبى على ما أظن :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

ابتسمت .. هذه التعبيرات تبدو لها سخيفة .. ثمة نوع من افتعال الشاعرية هنا . على كل حال لم يكن شريف واسع الثقافة .. إنه شديد الذكاء عبقرى فى الكمبيوتر ، لكنها بالتأكيد قرأت أضعاف ما قرأه فى الأدب ..

لاحظ أنها ابتسمت ، فحمن على الفور ما تفكر فيه :

- « ما ننبى إذا كان الشخص الوحيد الذى فهمنى واستجاب لى هو جهاز الكمبيوتر ؟.. إنه عبد مطيع لى يقرأ أفكارى وينفذها قبل أن أطلب .. أعتقد أن لى بدلاً من القلب وحدة معالجة مركزية CPU .. »

اتجه نحوها شريف كأنه لم يمر بعلقة ساخنة منذ ثوان ، وأدار محرك السيارة .. كشيء تعمل لحسن الحظ .. فتح لها الباب المجاور له ، فجلست ...

وانطلق بسيارته نحو تلك الكافتيريا ..

قالت لأمها :

- « شريف يبغى العودة لى .. »

كان هذا بالنسبة للأم أجمل من أن يصدق .. سوف تتخلص من عبير وابنتها ومشاكلهما بضربة واحدة .. لن تعود ابنتها مطلقة بل زوجة فى دار زوجها .. هى تحب (عبير) فعلاً ، لكنها ترى أن المرأة مخلوق لا غرض من مجيئه للعالم سوى الزواج والإنجاب .. ما عدا هذا يعد تحدياً للحكمة من وجوده ..

كانت عبير عبناً .. قبيحة فقيرة ولديها طفل .. من الصعب أن تجد زوجاً آخر . خلافاتها مع أخيها لا تنتهى .. عودة شريف فرصة ذهبية لا يجب أن تتخلى عنها بأى ثمن ..

هكذا ألتحت عليها الأم فى القبول ..

قالت عبير إنها تقريباً قد قطعت الجسور بينها وبينه .. لقد قالت لاشبه حاسمة ..

هنا تلقت لكمة فى صدرها من أمها .. لكمة مفاجئة لم تتلق عبير مثلها منذ عشر سنوات ..

وقبل أن تندهش انفجرت العجوز فى البكاء .. جالسة على كرسى المطبخ الواطىء دفنت وجهها بين كفيها وراحت تبكى .. تمثال معاصر هو تقليد بانس لتمثال (المفكر) لرودان ..

(عبير) هى الأخرى شعرت بأن الصنبور فى عينيها وأنفها تفتح ولا شيء يوقفه .. كانت تبكى بسبب بكاء أمها ولا تبكى بسبب اللكمة .. أقسى شيء فى الكون أن نبكى أهلكنا وهم فى هذه السن ..

أما الأسوأ فهو طفلتها التى رأت كل شيء فانفجرت تبكى بدورها .. ثلاثى من الباكيات يذكرك بالمسرح الإغريقى فلا ينقصهن سوى جوقة تنشد أشعار سوفوكليس ..

لم تنتظر طويلاً ، وركضت باكية نحو حجرتها ..

أغلقت الباب .. هرعت نحو جهاز الكمبيوتر النقال الذى أعطاه إياها شريف . جلست على الفراش وثبتت الأقطاب على رأسها ..

هى بحاجة إلى الهرب .. بحاجة للنسيان ..

هى بحاجة إلى فاتناتزيا ...

قبل أن تغيب راح بيت الشعر يتردد فى ذهنها :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

2- سيف الدولة ..

هناك كان المرشد واقفاً جوار جدار ينتظرها ، ويده فى جيبه بينما هو يضغط سوستة القلم بلا توقف .. تك .. تك .. تك .. تك ..
تتك .. لسبب ما يعتقد هذا الرجل أنه ساعة حائط ...

البذلة السوداء ونظرة اللامبالاة والأناقة العامة الباردة ، كأنه يلعب دوراً فى فيلم (رجال بتياب سود) . مهما كانت حزينة أو مكتئبة أو منهارة أو سعيدة ملقطة ، فهو يرمقها بذات اللامبالاة مع لمسة من السخرية .. شخص لا يطاق ولولا أنه مفتاح فاتنازيا الوحيد لتخلصت منه أو قتلته ..

- « تأخرت يا أليس .. أنباء سيئة هذه المرة .. »

قالت وهى تمسك بساعده كأنه خطيبها :

- « صراع (دنو ضد تجنب) .. أريد الشيء وأمقته فى ذات الوقت .. أنت تفهم هذه الأمور وأكون شاكراً لو كففت عن التدخل فى شئونى الخاصة .. »

قال فى دهشة :

- « أنا لست شخصاً غريباً أو عابر سبيل .. أنا جزء من

عقلك الباطن .. أنت صنعتنى .. »

- « ونادمة على ذلك .. هلم .. ألا تعرف أن المرء قد يخفى أدق الأسرار عن نفسه ؟ .. لقد كانت لنا مغامرة شنيعة مع علماء النفس .. ألم تتعلم شيئاً ؟ »

- « بلى .. تعلمت أنك مجنونة تقريباً .. والآن إلى أين مغامرة اليوم ؟ »

فكرت حيناً ونظرت إلى قطار فاتنازيا المضحك الذى يتصاعد منه الدخان ، وهو يهتز ويزار ويوشك على الوثب من مكانه .. قطار حى تماماً ككل قطارات ديزنى ..
قالت له :

- « المغامرات ذات الطابع التاريخى .. إنها غالباً مفيدة إن لم تكن ممتعة .. »

هز رأسه فاهماً ، وقال :

- « آه .. ألعاب تاريخية .. تحبين هذا الجزء .. من الجميل أن يثرثر المرء مع بونابرت أو محمد على .. لم لا ؟ .. هل ترغبين فى فترة زمنية معينة ؟ »

حكّت شعرها ، ثم قالت :

- « أمس كنت أقرأ أشعاراً للمنتبى .. لم أفهم بالضبط ما يقول ، لكن شعره بدا لى رائعاً ، ويخيل لى أنه أكثر شاعر استعمل شعره فى الأقوال المأثورة والأمثال .. »

- « هو (و أحمد شوقى) .. أعتقد أن هذا صحيح .. كم من مرة استعملت بيت الشعر (دقات قلب المرء قائلة له .. إن الحياة دقائق وثوان) لشوقى؟ .. أو (ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام) للمنتبى؟ .. بالنسبة للمنتبى أنت تتكلمين عن 326 قصيدة من عيون الشعر العربى .. »
- « إذن لماذا لا نجرب ؟ »

- « حقاً لماذا؟ .. إن حياة الرجل صاحبة وهناك قدر كبير من الغموض يحوم حوله .. أعتقد أنه يمنحنا مغامرة لا بأس بها .. لكنى أنذرك .. سوف نستعمل الاستشهاد بالشعر كثيراً جداً .. »
- « أنا أمقت كثرة الشعر .. القليل منه جيد لكن لا تفرط فيه .. تذكرنى بعمر الخيام عندما كان ينشد رباعية كلما مرت خمس دقائق .. »

- « لا يمكن أن أتكلم عن المنتبى بلا شعر .. سيكون هذا كوصف الأيس كريم دون أن أسمح لك بتذوقه .. »
قالت فى قنوط :

- « ليكن .. قل شعراً لكن لا تفرط فيه .. »

تدخل معه حلب فى القرن الرابع الهجرى .. هذه الأجواء مألوفة ، ورأتها أكثر من مرة ..

أشار المرشد - كأنه تحول إلى مرشد سياحى فجأة - إلى بيت صغير عتيق الطراز ، وقال :

- « هنا كان يعيش أشعر شعراء العرب .. خلف خان الوزير فى حلب .. هناك باحث وجد هذا الموقع فى العصر الحديث ، والحكومة السورية قررت أن تحوله إلى متحف يحمل اسم المنتبى .. لكنك لن تبدئى المغامرة هنا .. سوف تذهبين إلى بلاط (سيف الدولة الحمدانى) .. »

وقبل أن تسأل أسئلة أخرى كان قد اختفى ..

يستوقفها الحراس على الباب فتبرز تحقيق الشخصية الذى يثبت أنها صحفية ..

كارنيه الصحافة .. يخترق كل الأبواب الموصدة أو من المفترض أن يفعل ذلك .. حتى بلاط سيف الدولة. عرفت على الفور أنها صحفية كما اعتادت فى فاتنازيا ، والأهم أنها صحفية عبر الأزمان ..

ثياب الحراس الذين يسدون طريقها بالزجاج المتقاطعة تشى بأنهم من العصر الأموى أو العباسى أو شىء من هذا القبيل ..

تعرف أنها تجتاز مدخل بلاط سيف الدولة بن حمدان حاكم (حلب) .. لكنها لا تعرف تفاصيل أخرى ..

هناك فى صدر القاعة كان جالسًا .. من الواضح تمامًا أنه ملك أو أمير .. له تلك الملامح الهادئة الموحية بالثقة .. ملامح رجل مطمئن إلى قوته و ثروته وكرم محته .. هذا رجل بلا عقد تقريبًا .. وسيم على شفتيه بسمة هادئة خافتة من تلك البسمات التى تدل على قوة مفرطة ..

لكنه لم يكن يتكلم ..

كان هناك عشرات الرجال من حوله يقترشون ما يبدو كمجلس عربى .. وكانوا يتجادلون بقوة .. فقط لاحظ أحدهم وجودها بثيابها العصرية فساد الصمت ، ونظر لها الجميع بفضول ..

قال أحد الحراس بسرعة :

- « صحفية يا مولاي ! »

كان لفظة صحفية مألوفة فى هذا العصر ..

ضحكت (عبير) كاشفة عن أسنانها ولوحت بجهاز التسجيل ، ثم أخرجت الكاميرا الرقمية الصغيرة من حقيبتها ، والتقطت صورة للجالسين .. صورة لا قيمة لها طبعًا لأن كل من يراها فى

عصرنا سيحسب أنها التقطت فى مدينة الإنتاج الإعلامى .. فقط لا يلبس أى من الجالسين ساعة رقمية ولا يستعمل الهاتف المحمول .. ربما كان هذا دليلًا على أصالة الصورة ..

بدا أن الملك أو الأمير لا وقت عنده للصحافة ، لذا أشار لها كي تجلس فى نفاذ صبر ، ثم راح يتابع المحادثة المحتدمة بين اثنين من الجالسين ..

الأول كان عجوزًا وقورًا أشيب اللحية يتكلم بتؤده وثقة ، والثانى كان أقرب للشباب .. وكان عصبياً نافذ الصبر لا يثبت على وضع فى جلسته ..

يبدو أنهما كانا يتناقشان فى قضية نحوية صعبة ..

وتذكرت باسمه أجواء (سيبويه) و(الخليل بن أحمد) .. ومعركة (سيبويه) النحوية مع (الكسائى) .. يبدو أن المصارعات النحوية كانت تسلية شائعة فى ذلك العصر ..

مالت على رجل يجلس جوارها ، وسألته همسًا :

- « بس س ..! من الرجلان بعد إنك ؟ »

نظر لها فى غيظ وهمس :

- « أنا أصغى ولا وقت للأسئلة السخيفة .. »

- « أعدك أن أخرس بعدها .. فقط من هما ؟.. أريد أن أتبع .. »
قال بذلك الهمس الذي يذكرك بالفحيح :

- « الشيخ هو (ابن خالويه) .. العالم البغدادي صاحب كتب (الجمل في النحو) و(كتاب الأسد) و(إعراب ثلاثين سورة من القرآن) .. الرجل هو (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي) .. »

- « فهمت .. فهمت .. لقد شخت عما كنت عندما وجهت السؤال .. »

- « وهو جرىء جداً كي يتحدى (ابن خالويه) في النحو .. »

لم تعرف من هو صاحب ذلك الاسم الطويل ، لكنها أدركت أنه يلعب دور من يتحدى (رونالدنيو) في تسديد الأهداف ، أو يتحدى (بروس لي) في الكونج فو ..

هنا تعالى صوت الرجل الأصغر سنًا يقول في تحدّ:

- « أكرر .. رأيك خطأ خال من أي صواب !.. »

كان هذا الأسلوب يفوق ما يمكن أن يقبله الشيخ ، مهما بدا عليه من سماحة وسعة أفق .. بالواقع كان الاستفزاز قوياً لذا مد يده في كفه وأخرج مفتاحاً .. مفتاحاً من مفاتيح ذلك العصر التي

تحتاج لرجلين لحملها ، وضرب به الرجل في رأسه ضربة قوية فوق العمامة ، وهو يقول من بين أسنانه :

- « تأدّب يا فتى ! »

تحسس الرجل رأسه .. بالطبع لا يجروُ أحد على رد الضربة لشيخ فان كهذا ، دعك من أنه رجل مهيب أصلاً .. لهذا نظر نحو سيف الدولة وهو يفرك موضع الألم .. كأنه يطالبه باتخاذ إجراء ما ..

قال سيف الدولة بصوت هادئ واثق :

- « فلننه هذا الموضوع .. أنت تجاوزت حدودك مع الشيخ يا (أحمد) .. »

تعالت أصوات الناس مؤيدة ..

وقد رأت (عبير) أن معهم كل الحق في هذا ، وإن فهمت كذلك أن هناك درجة معينة من الشماتة في تصرفهم .. إنهم يحقدون عليه كما هو واضح .. لكن الرجل لم يستطع قبول ذلك ..

اتسعت عيناه وضغط على عضلته الماضغة فصارت كرة حديدية .. ثم نظر للناس الجالسين وسيف الدولة ، وسرعان ما نهض مغادراً المكان ...

مالت على ذلك الرجل الذي يجلس جوارها ، والذي بدا موشكاً على خنقها من كثرة أسنلتها ، وهمست :

- « هذا الرجل شديد الحساسية الذى غادر المكان شاعراً
بالإهانة .. (أحمد بن عبد الصمد بن الحسين الكوفى الجعفى) .. »

قال مصححاً فى ضيق :

- « تقصدين (أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد
الجعفى الكوفى الكندى) طبعاً .. »

- « نعم .. نعم .. هل له اسم أسهل ؟ »

بدت عليه الدهشة ، ونظر لها ولسان حاله يقول : « من أين
يأتون بهؤلاء الحمقى ؟ »

ثم قال :

- « هو (أبو الطيب) طبعاً .. (المتنبى) يا حمقاء ! »

4- مفترق الطرق ..

« جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس .. »

ابن رشيق القيروانى

هذا هو المتنبى إذن !

المتنبى بشحمه ولحمه وعبقريته .. الذى اعتبره الكثيرون أعظم
الشعراء العرب طراً ، والذى اعتبره كذلك ليس أنا بل من هو فى
وزن (أبو العلاء المعرى) شخصياً .. أبو العلاء له كتاب كامل
فى شرح شعر المتنبى ..

قال (أبو العلاء) هذا رأى ذات مرة أمام الشريف المرتضى
نقيب الأشراف ، مما استغز هذا الأخير .. راح يشتم المتنبى
ويسفه من شعره وقيمته ، فقال أبو العلاء :

- « يكفيه أنه قال قصيدة (لك يا منازلُ فى الفؤاد منازلُ) .. »

طبعاً كان أمراء وخلفاء ذلك العصر خبراء فى الشعر ؛ لذا
عرف الشريف المعنى الذى قصده الشاعر الكفيف ، وصاح وقد
احمر وجهه فيمن حوله :

« أخرجوا هذا الكلب من هنا !! »

فلما طردوا (أبو العلاء) شر طردة من المجلس — وهو لم يكن راغباً فى حضوره على كل حال — قال الشريف المرتضى لمن حوله :

« هل فهمتم ؟ .. الأعمى يلمح إلى هذه القصيدة ؛ لأن فيها البيت القائل :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص .. فهى الشهادة لى باتى كامل ! »

أى إن الشريف ناقص ؛ لذا فإن رأيه لن يضر المتنبى بشيء .. بل يزيد من قدره .. بصراحة تعتقد (عبير) أن فى هذا نوعاً من التذاكى ، وأن (أبا العلاء) تلقى علقة لتهمة لا ذنب له فيها .. ربما هو قد ظلم بقسوة .. لكنها تعرف يقيناً أن هؤلاء القوم يفهمون الشعر فعلاً ، وليس من السهل خداعهم ...

هذا هو المتنبى إذن ..

طموح وعبقرية يمشيان على قدمين ، وحدة طبع واضحة فى كل شيء ..

هذا هو المتنبى العبقرى .. لقد قابلت عباقرة كثيرين فى فانتازيا وها هو ذا عبقرى آخر ..

فقط عليها أن تلحق به بسرعة ..

هكذا نهضت مغادرة المجلس ، آملة ألا يلاحظ أحد رحيلها .. هذه قلة ذوق لا شك فيها ، لكن لا وقت للمجاملات ..

كان مشغولاً يجمع حاجياته وثيابه فى عدة صناديق .. ويكلف الخدم بأشياء ..

وقفت على باب جناحه فى حرج تنتظر ..

استدار فرآها .. تغير وجهه قليلاً وبدا أكثر عصبية ، ثم حمل طيلساناً ألقى به فى أحد الصناديق كيفما اتفق ، وسألها :

« من أنت ؟ »

« صحفية مكلفة بإجراء حوار معك .. »

كان قبيحاً إلى حد ما .. ملامحه حادة فعلاً ، وكانت عيناه قويتين نفاذتين .. بالإضافة لهذا كان شديد الكبرياء على درجة ما من التعالى .. لا يمكن فهم هؤلاء العباقرة ، فإما أن يكونوا متواضعين بسيطين مثل (تشيكوف) و(نجيب محفوظ) ، أو يكونوا مغرورين لهم طباع الأطفال المشاكسين مثل (بيرون) و(بيتوفن) .. ربما يكونون أقرب إلى الجنون كذلك كما فى حالة (فاجنر) ..

فى الحاليتين هم عباقره .. فلا يمكن أن تصل إلى قاعدة نهائية تقول إن الغرور يدل على ضعف الموهبة ، كما لا يمكن أن تقول العكس .. الفيصل الوحيد هو ما يصنعه هذا الفنان فى النهاية ..

(المتنبى) كما واضح نموذج للشاعر المعتر بنفسه إلى درجة مستفزة أحياناً ، ولا يكف عن خلق الأعداء ، كما أنه لا ينظر بأى عين من العطف أو التقدير للشعراء الآخرين .. كلهم تافهون مدعون ..

فيما بعد ستعرف (عبير) أنه لا يضحك أبداً .. هو أميل للاكتساب والعبوس ، وهناك قصة واحدة عن أنه ضحك عندما رأى رجلين قتلاً فأراً ضخماً وراحا يعرضان جثته فى فخر ، فسخر منهما .. وهكذا عندما قالت (عبير) إنها صحفية قال لها فى شىء من السخرية :

- « وماذا تريد من معرفته ؟ .. لا أحد يجهل من هو (أبو الطيب) ..

الخيل والليل والبيداء تعرفنى ..

والسيف والرمح والقرطاس والقلم ..

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ..

وأسمعت كلماتى من به صمم .. »

قالت وهى تكتم غيظها :

- « نعم .. لكن لا أحد يعرف خلفيات هذه العبقرية .. العبقرى له أم وأب وقصة حب ومشاكل عمل وأحلام و ... و ... »

استند إلى أحد الصناديق المفتوحة التى امتلأت بالدنانير وقطع الذهب ، وقال :

- « مشاكل عمل .. نعم .. أنت قد جننت بينما أنا أوشك على مغادرة بلاط سيف الدولة .. تسع سنوات وثمانون قصيدة أو أكثر .. لم يحدث فى تاريخ العرب أن امتدح شاعر حاكماً بهذا العدد من القصائد. إنه الحاكم الوحيد الذى أحببته حقاً وارتحت له ووثقت به ، ورافقتة فى كل حملاته البطولية ضد الروم .. وصفت كل شىء .. رثيت من مات من أقرابه .. امتدحته .. وصفت معاركه .. إن أصدق مدحى كان من أجله .. وهو كذلك كان يعرف قدرى جيداً .. »

« بالجيش يمتنع السادات كلهم

والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع .. »

أى إن السادة يحتمون بالجيش .. لكن الجيوش تحتمى بسيف الدولة !

وتشرد نظرات المتنبى .. يسترجع تدليل سيف الدولة له ، حتى إنه الشاعر الوحيد الذى كان يحق له إلقاء الشعر جالساً أمام الحاكم ، بينما أى شاعر آخر يجب أن يقف .. يسترجع حقد الشعراء عليه ، وكيف دخل أحدهم على سيف الدولة غاضباً ليقول :

- « أنت يا مولاي تدلل المتنبى أكثر من اللازم .. أنا أفضل منه فى الشعر ، ويمكننى أن أعارض أية قصيدة له .. »

قال سيف الدولة على الفور :

- « عارض قصيدته التى تقول : لعينيك ما يلقي الفؤاد وما لقى .. وللحب ما لم يبقي منى وما بقى .. »

نظر له الشاعر فى حيرة .. فالقصيدة متوسطة المستوى .. بل هى من أسوأ قصائد المتنبى .. ثم أدرك أن سيف الدولة اختارها لأنها قصيدة ضعيفة .. إنها الغبار المتناثر من تحت سنابك ذلك الحصان الجامح .. لقد كان المتنبى يقول فى القصيدة :

بلغت بسيف الدولة الثور رتبة .. أثرت بها ما بين غرب ومشرق
إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق .. أراه غبارى ، ثم قال له : الحق !
هذا هو !.. سيف الدولة أراد أن يلهو بلحية الشاعر الأحمق ، فأراه غبار المتنبى وطلب منه أن يلحق به !

هكذا كانت الأمور ثم انتهت ...

سألته (عبير) وهى تضع الجهاز قرب فمه :

- « شعر المناسبات والمدح قد يبدو أقل أهمية من الشعر الذاتى .. لاحظنا أن وصف الطبيعة فى شعرك قليل جداً .. »

كان سؤالاً مهماً فعلاً ؛ لأن الرجل لم يصف نهرًا أو مطراً إلا من حيث هو يذكره بسخاء من يمدحه .. فقط !

قال فى عصبية :

- « هل تحسبين الحياة مع أمير باعتبارك شاعرتة سهلاً ؟ .. يجب أن تكون قريحتك جاهزة دائماً فلا مجال هنا (للمزاج) ..

لو أمطرت السماء على الأمير ، كان عليك كتابة قصيدة تفضل صيب الأمير على صيب السماء .. لو هبت عواصف فأطارت خيمة الأمير ، فعليك أن تكتبي قصيدة تتفاعل بهذا الذى حدث ، وتقولين إن عظمة الأمير أكبر من أن تتحملها الخيمة .. لو مرض الأمير فعليك أن تتمنى له الشفاء .. لو شفى الأمير فعليك كتابة قصيدة تهنئة ممتازة .. كل هذا يجب أن يتم بسرعة وإلا سبقك الشعراء الآخرون !.. أنا فعلت هذا بكفاءة تامة مع سيف الدولة .. »

سألته (عبير) :

- « ولماذا ترحل ما دامت العلاقة مع سيف الدولة حميمة كما

تصفها ؟ »

احمرًا وجهه وأغلق الصندوق بصوت مسموع ، وهتف :

- « لأنه لم ينصفني .. لقد أهنت أمامه الآن على يد (ابن خالويه) فلم يتدخل !! هذا الموقف نتيجة أشهر من الوشايات وسوء الفهم .. أخشى أننا بلغنا مفترق الطريق فعلا .. حان الوقت لإنهاء صداقة دامت تسعة أعوام .. حان الوقت كي أترك حلب كلها لينعموا بها هم .. في الحقيقة أنا أفهمهم إلى حد ما .. هذا شعور بشري طبيعي .. لا بد أن يجنوا ويقتاظوا لوجود شاعر مثلي في هذا العالم ، فلو زلت لنالوا المجد كله .. إن لي شعراً يلخص هذا الموقف :

« إنى وإن لمتُ حاسدئ فما .. :

أنكر أنى عقوبة لهمُ

وكيف لا يُحسد امرؤ عَلم .. :

له على كل هامة قدم ؟ »

ابتسمت (عبير) .. يجب أن تضغط على أعصابها وتحمل فخر هذا الرجل بنفسه طيلة الوقت ، لكنها لا تنكر كذلك أن شعره رائع .. الحميد لله أنها ليست شاعرة وإلا لجعلها تلقائياً من أعدائه ..

لكن المتنبى - والحق يقال - كان يحترم شاعراً واحداً في البلاط كله ويصغى لشعره في اهتمام .. إنه (الناسي) .. شاعر حقيقي استطاع أن يظفر باحترام المتنبى ، لكنه - لأسباب مجهولة - لم يشتهر في تاريخ الأدب العربي فلا يعرفه إلا قلة من الدارسين ..

عادت تسأله :

- « هل الوشاية هي السبب الوحيد ؟ »

ابتسم في خبث ، وتحسس لحيته الناعمة ، وقال :

- « ربما كذلك ما قتلته عن (خولة) أخت (سيف الدولة) في قصيدة لي أرثيها فيها .. لقد وصفت مبسمها ، واعتبر هو هذه إهانة لا تليق .. »

أطلت على مدينة حلب كما تبدو من نافذة في الغرفة ، وكما تبدو وقد استحمت في ضوء الغروب القرمزي الباهت الحزين .. حلب الشهباء الواقعة ما بين نهر الفرات والبحر المتوسط .. وقالت :

- « بينى وبينك .. معه حق .. هذه قلة أدب لا شك فيها .. »

فيما بعد قال الخوارزمي عالم الجبر العظيم : لو عزاتى أحد في امرأة لي ببيت شعر كهذا لألحقته بها !!

هذه واحدة من تجاوزات المتنبى المعروفة .. أحياناً يكون وقحاً جداً أو يجافيه التعبير .. لو سمحت لي بتعبير عامي دقيق لقلت إنه (مدب) .. ولسوف تورده عثراته الذوقية هذه موارد الأذى طيلة حياته ...

مد المتنبى يده إلى قرطاس يحمله .. قرطاس من الطراز العباسى
جداً الذى تكتب عليه أوامر الملوك وفرماناتهم ، وناولها لها :

- « هذه آخر قصيدة مدح كتبتها فى سيف الدولة .. خذها
لتنشرها عندك حصرياً .. هذا انفراد لا شك فيه .. تخلى عناوين
جريدتكم تقول : نحن ننشر بنشر آخر قصائد المتنبى فى سيف
الدولة ! »

بالفعل هذا انفراد .. المشكلة هى أن القصيدة سوف تنشر بعد
1000 سنة تقريباً .. لكنها فتحت القرطاس فى امتنان وقرأت
بصوت عال مرتجف :

لا تطلبن كريمًا بعد رؤيته
إن الكرام بأسخاهم يذا ختموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره
قد أفسد القول حتى أحمد الصمم
يا أعدل الناس إلا فى معاملتى
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أى أن (سيف الدولة) هو أكرم الكرام فلا تسأل عن كريم آخر
بعده ، وكذلك شاعره هو الأفضل فلا تهتم بالشعراء الآخرين ..
هذه سمة عامة سوف تلاحظها (عبير) فى شعره فيما بعد : لا بد
أن يمتدح نفسه مع من يمتدح .. بل إن امتداحه لنفسه غالباً ما
يأخذ الجانب الأكبر والأجمل من القصيدة ..
قالت صادقة :

- « أبيات جميلة جداً .. »

- « إم م م .. »

قالها بلهجة من مل سماع هذه البديهييات .. ثم عاد يصدر
أوامره الحادة للخدم ..

برغم كل شيء كان متأثراً فعلاً .. الصدام بين كبريائه الملتهبة
وحبه الحقيقى لسيف الدولة .. لقد رحبت الكبرياء .. دعك من أنه
لا يشعر براحة وسط كل الأفاعى التى تزحف فى هذا البلاط ..
لا بد أن البلاط كله سمع بالخبر ، ولا بد أن (سيف الدولة) عرف
أن المتنبى راحل . فلماذا لم يستدعه أو يهرع له ..؟ المعنى
ببساطة أنه أراد هذا ...

قال المتنبى فى يأس عالماً أن الوقت فات لتقريب الفجوة بينه
وبين سيده :

ببنى وبينك ألف وإش ينعب
فعلام أسهب فى القناء وأظنب ؟

صوتى يضيع ولا تحس برجعه
ولقد عهدتك حين أنشد تطرب

ثم قال قصيدة رقيقة فعلاً :

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به

من أن أكون حبيباً غير محبوب

لقد انتهت مرحلة مهمة من حياة المتنبى ، هى علاقته بسيف
الدولة ..

إنه راحل وبالتالي هى مضطرة للرحيل معه ..

تريد أن تعرف من هو ؟

كيف صار من صاره ؟

والأهم هو : ماذا سيحدث له وهو القادر على اجتلاب المتاعب

أيضا كان ؟

4- مصر التى لم يحبها ..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله ، ومن فوقه لوح المتنبى
بسيفه وصرخ صرخة هائلة .. هوى بسيفه على عنق أحد
الرجال فطارت رأسه متدحرجة تحت حوافر الحصان ..

وانطلق رمح نحوه لكنه انحنى فتفاداه فى اللحظة المناسبة ..

قال المتنبى لـ (عبير) وهو يقود حصانه ، وقد رفع حاجبيه
وأغض عينيه ، بالطريقة التى فهمت (عبير) أنها لحظة تلقيه
لشيطان الشعر :

وأعلم أن البين يشكيك بعده

فلست فؤادى إن رأيتك شاكياً

فإن دموع العين غدر بريها

إذا كنّ إثر الغادرين جواريا

وللنفس أخلاق تدل على الفتى

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

أقلّ اشتياًفاً أيها القلب إننى

رأيتك تصفى الود من ليس صافيا

ثم فتح عينه ببطء ونظر لـ (عبير) التى تلاقى المتاعب على صهوة جواد يخب جواره ، وكأنه يسألها عن رأيها أو ينتظر إطرأ ، فقالت وهى تمسك للجام بقوة :

- « لا أفهم حرفاً .. لو كنت تحسبنى (الخليل بن أحمد) فأنت مخطئ على الأرجح .. »

- « لا أحسبك شيئاً على الإطلاق .. هذه أبيات ألوم فيها فولادى على اشتياقه لسيف الدولة .. »
قالت فى عصبية :

- « جميل جداً .. تصفه بأنه غادر .. وأن ما يمارسه ليس سخاء ولكنه (تساخ) .. وهو ليس صافى الود .. ألا ترى أنك تحمل له تقديراً زائداً ؟ .. هل هذا رأيك فيه فعلاً ؟ »

أغمض عينيه من جديد ، وقال وهو يهز رأسه :

- « ألم تسمعى عن شيطان الشعر ..؟ أحياناً تكتب الأبيات نفسها وتدفع الشاعر إلى قول ما لم يقصده .. المغالاة .. المبالغة .. هذه من سمات الشعر المهمة .. »

- « ربما لهذا يكتبون الشعر الحديث أحياناً .. يقولون ما يريدون دون تكلف .. »

نظر لها فى اهتمام وتساءل :

- « شعر حديث ؟ .. ما هو ؟ »

- « شعر تحرر من القافية وطول السطر .. وربما التفعيلة أحياناً .. »

ثم أغمضت عينها وقالت بلهجة درامية :

- « أراها تخط تاريخها السرمدى فى صفحة الطحلب الزغبى .. »

« وفى رئة الشمس يغلى التداخل والاختمار ... »

نظر لها ورفع حاجباً واحداً .. ثم سألها دون أن يبدو مزاح فى صوته :

- « هل أنت متأكدة مما تقولين ؟ .. الشمس لها رئة .. وهناك من يكتب فى صفحة الطحلب الزغبى ؟ .. لقد سمعت شعراً أروع قالته ناقتى .. ما معنى هذا الكلام الفارغ ؟ .. هل هى تعويذة لطرده الشياطين ؟ »

قالت فى كبرياء :

- « بل هو شعر حديث .. أنت لن تفهم هذا .. »

فى ضجر قال :

- « ولا أريد أن أفهم .. نحن متوجهون إلى مصر على كل حال .. »

مصر ؟

ولماذا مصر ؟

كان العراق أقرب له وأسهل ..

لما سأنته هذا السؤال ، قال فى غموض :

- « هذا السؤال سيحير أديباً من عصركم اسمه (طه حسين) ،
ولسوف يرجح أن السبب هو أتى أفسدت علاقتى بالعراق والعراقيين
بكل ما قلت من هجاء فيهم .. لقد قطعت جسورى مع العراق ..
صحيح أننى هجوت الإخشيديين فى مصر قليلاً ، لكن هذا لم
يخلق خلافات خطيرة .. »

- « هذا كلام (طه حسين) عنك .. فماذا عن كلامك عن

نفسك ؟ »

قال بذات الغموض :

- « هذا سر ! »

بعد أيام وليال فى صحراء سيناء الرهيبة .. وبعد الفرار من
مئات الذئاب وهجمات عشرات من قطاع الطرق - لاحظ أنه لم
تكن هناك نقاط حراسة ولا قرى سياحية فى ذلك العصر - بلغ
المتنبى ومرافقته وقافلته (مصر) ...

بدا الجو مألوفاً لعبير فعلاً برغم أن ألف عام تفصلها عنه ..

سألت المتنبى وهما يقتربان من مشارف المدينة الضخمة
(الفسطاط) :

- « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

- « سؤال سخيف .. طبعاً ذاهب للقاء الحاكم (كافور الإخشيدى) .. »

- « وماذا تنوى عمله عنده ؟ »

- « سؤال أسخف .. سأمدحه طبعاً .. »

حكى رأسها مفكرة ، ثم سألته :

- « هل تعرف من مآثره ما يكفى لجعلك تتفعل وتكتب شعراً ؟ »

رفع رأسه فى شمم وضرب خاصرة الحصان بكعبه ليسرع أكثر ،
وقال :

- « يا فتاة .. أنا لم أمدح أحداً ، ولن أمدح أحداً عن اقتناع سوى
(سيف الدولة) ، أما هنا فالمدح مجرد وسيلة للتقرب من الرجل .. »

هذه صفقة عادلة .. أنا لدى شعر ممتاز وهو لديه مال ونفوذ
عظيمان .. خذ هذا وهات ذاك .. نفس ما تفعلينه فى السوق .. «
- « هذا منطق عملى .. لكنه (براجماتى) أكثر من اللازم .. »
- « لا أعرف معنى لفظة (براجماتى) هذه لكنى أعرف معنى
لفظة (طموح) .. »

الطموح .. نعم .. هذه الكلمة تلخص المتنبى ..

الطموح لمكانة فى الشعر لا يبلغها أحد ..

الطموح للمجد ..

الطموح للثراء ..

الطموح للنفوذ ..

الطموح لـ ... لشيء لا يعرفه هو نفسه لكنه يريد به بقوة
كاسحة ..

تدخل (عبير) معه إلى بلاط (كافور الإخشيدى) ..

ينظر الجالسون فى فضول ودهشة إلى القادم الجديد .. لا يبدو
عليه الوجع أو التردد بل يتقدم مرفوع الرأس مليئاً بالثقة بالنفس
نحو الحاكم الجالس على العرش .. الحاكم أسود اللون الذى يلتصق

جلده فى ضوء المشاعل كأنه الأبنوس ، والذى تطل نظرات
مخيفة من عينيه ببياضهما الناصع .. شفته السفلى غليظة جداً
ومثقوبة ، بينما يتهدل شعره المجعد الأشيب على كتفيه ..
لم يكن جميلاً لكنه مهيب بلا شك .. فآخر لو شئت الدقة ..

بصوت جهورى قال المتنبى :

- « السلام على (كافور الإخشيدى) .. أنا (أبو الطيب) أشعر
شعراء العرب .. جئت بقصيدة أمتدحكم فيها .. »

ساد الصمت .. الحقيقة أن هذا التملق بدأ أقرب إلى التهجم ..
كأن (كافور) هو الذى جاء يستعطف المتنبى ، وقد تذكرت
(عبير) على الفور التعبير العامى (حسنة وأنا سيدك) ..

نحوها اتجهت العينان المخيفتان ، وسأل (كافور) :

- « ومن هذه ؟ »

قال المتنبى :

- « صحفية تغطى قصة حياتى وتدون شعرى .. »

- « ما معنى (صحفية) ؟ »

- « لنقل إنها (راويتى) .. »

ثم انتصب وأخذ شهيقاً عميقاً ، وأغمض عينيه وقال :
 - « هذه أبيات قمت بتأليفها لـ (كافور) العظيم ..
 « قواصد كافور توارك غيره
 « ومن قصد البحر استقل السواقيا
 « فجاءت بنا إنسان عين زماته
 « وختت بياضاً خلفها ومأقيا .. »

فى الحقيقة لم يكن قد ألف هذه الأبيات ، بل هو يؤلفها للحظته ! ..
 ارتجال الشعر من مواهبه العظيمة ، لكنه يخفى ذلك ويتظاهر
 بأنه سهر أياماً فى نظمها .. وما كان يعرف كيف ستكون
 القصيدة قبل أن ينشد أول بيت فيها ..

* * *

حذار يا متنبى ! ..

كافور الإخشيدى يختلف تماماً عن سيف الدولة ..

الأستاذ - هكذا ينادونه - أبو المسك كافور بن عبد الله
 الإخشيدى .. عبد عاش فى مصر ثم بيع إلى أمير سوري .. مات
 سيده أمير دمشق ، فولاه ابناه مكان أبيهما لأنهما يعرفان ذكاه
 وشجاعته جيداً .. ثم اتجه إلى مصر ليهزم ملكها (غلبون المغربى) .

لم يكن كافور حاكماً سهلاً أو ساذجاً .. أن الفاطميين كلما
 فكروا فى غزو مصر كانوا يقولون : « دوننا ومصر الحجر
 الأسود ! » .. والحجر الأسود هو كافور ...

الحقيقة أن المتنبى خلد هذا الرجل فعلاً ، ولكن خلده بالشكل
 الخطأ .. خلده بالسباب فيما بعد .. لكن التاريخ ينقل لنا صورة
 مختلفة تماماً عن هذا الرجل .. والمؤسف أن معظم الناس لن
 تعرفه إلا عن طريق أبيات المتنبى ..

هكذا ظل متجهم الوجه يصغى للمتنبى وهو يمدحه :

- « وأخلق كافور إذا شئت مدحه

وإن لم أشأ تملى على فأكتب

إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه

ويمم كافورا فما يتغرب »

قال كافور فى برود ما معناه (كويس) .. هذه الحيل لا تنطلى
 على رجل ارتقى السلم منذ كان عبداً بيع بعشرة دنانير إلى أن
 صار حاكم مصر ومعظم الشام

يواصل المتنبى إنشاده :

- « أحن إلى أهلى وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاء مغرب
فإن لم يكن إلا أبو المسك أو هم
فإنك أحلى فى فؤادى وأعذب »

المعنى ؟.. أن المتنبى يحن لأهله بشدة وقد ابتعد عنهم كأنه
طائر العنقاء فى رحلته نحو الغرب ، لكن لو كان عليه أن يختار
فهو يفضل الأستاذ (كافور) ..

كرر كافور شكره الفاتر للشاعر ، ثم أمر بأن يقيم فى البلاط
معه هو وتلك الص .. تلك الصحفية .. وأمر له بمنحة مالية ..
الرجل يتذوق الشعر ويفهمه ، فليس عنده للمتنبى إلا المال ..
هذا هو سعر ما قال من شعر ..

فى اليوم الثانى أنشده المتنبى قصيدة أخرى تقول :

- « كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أماتيا »

ابتسم كافور للمرة الأولى .. ابتسامة شاحبة متحفظة ، لكنها
جعلت المتنبى يدرك أن الجدار ليس مسدوداً تماماً ..

بعد أيام ألف قصيدة جديدة تقول :

- « ولما صار ود الناس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه
لعلمى أنه بعض الأنام »

هنا غابت الابتسامة عن وجه الأستاذ كافور .. هذه من عثرات
المتنبى الذوقية المعروفة .. إن الناس يبتسمون لى برغم أننى
أشك فيهم جميعاً .. حتى من أحبه أشك فيه لأنه (ناس) هو
الآخر .. هكذا قرر كافور ألا يبتسم فى وجه المتنبى ثانية ، وقد
فهم المتنبى أن الرجل يفهم الشعر جيداً وليس أحمق .. لا غرابة
فى أن اسمه (الأستاذ) .. السبب هو براعته فى اللغة العربية ..

الحق أن المتنبى أهان نفسه كثيراً مع كافور .. والأغرب أن
شعره كان يقول عكس ذلك ، كأنه كان يمارس تفاعل الإراحة
النفسى الشهير ..

ومن يهن يهن الهمان عليه
ما لجرح بميت إيلام

هكذا بدا أن أيام شاعرنا الطموح فى مصر ستكون صعبة فعلاً ..

5- ذكريات ..

عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث ، شعر بالأرض تميد تحت أقدام الحصان ..

إن للخيل عادة ذميمة هي أنها تتعثر فى اللحظة غير المناسبة ، وقد هوى حافر الحصان فى حفرة فى الأرض فأطلق صهيقاً ثم تعثر ليسقط على قائمته الأماميتين ..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار ، وللحظة حسبت (عبير) أن رأسه طار كذلك ، ثم أدركت أنها العمامة ..

كره المتنبى كل شيء فى مصر .. جوها .. حرها .. ماءها .. ناسها .. وبالذات كره حاكمها ..

من الواضح أن قلبه ظل معلقاً بحلب للأبد ..

وقد كان جالساً فى جناحه يطالع بعض الصحائف ، عندما دقت (عبير) الباب ودخلت .. لقد وجدت أن الوقت مناسب لمعرفة خلفيات هذا الشاعر العظيم ..

- « تعالى .. »

دخلت وجلست بقربه فتأملها فى اهتمام .. ماذا هنالك ؟ .. هل سيحبها كعادة أبطال فانتازيا ؟ .. ثم أدركت أنه يريد أن يعرف شيئاً واحداً :

- « هل أنت مصرية ؟ »

- « نعم .. »

- « كيف تطيقين هذا البلد وهؤلاء القوم ؟ »

بدالها كلامه لا يخلو من إهانة .. هل هو حقاً لا يجد ما يجنبه فى النيل والخضرة ووجوه الفلاحين الطيبة ؟ .. فقالت فى حزم :

- « كما يطيقك هذا البلد وهؤلاء القوم .. »

- « إننى هى كراهية متبادلة .. »

هنا فهمت لماذا كان يطيل النظر لها .. هو لن يحبها طبعاً .. هو من طراز الرجال الذين استبد بهم الطموح ولا يرون شيئاً سوى المستقبل ، ويتزوجون أول امرأة تصلح لتخفيف العبء عنهم فى رحلة الطموح المجنونة هذه .. فقط كان ينظر لها فى فضول لأنها مصرية ..

نظر لسقف الغرفة وتنهى طويلاً ، ثم قال :

أقيمت بأرض مصر فلا ورائى
تخب بى الركاب ولا أمامى
قليل عاندى .. سقم فؤادى
كثير حاسدى .. صعب مرامى
بهذه الأبيات العبقريّة لخص حاله فى مصر :

1 - عاند قليل ..

2 - فؤاد سقيم ..

3 - حاسدون كثيرون

4 - مرام صعب ..

قررت أن تغير الموضوع حتى لا تشتبك معه .. مهما كانت
تحفظاتها على مصر فهى لا تسمح لغير مصرى بأن يشتمها ..

حكى لها قصة حياته حتى هذه اللحظة ..

لقد ولد فى (كندة) بالكوفة عام 303 هجرى (أو 915 ميلادى) ..
(الكندى) لا تعنى أنه من كندا طبعاً .. إنه مولود من بلدة قرب
النجف ... يتيم لم ير أمه قط .. حار المؤرخون حول أبيه وما إذا
كان سقاء بسيطاً أم من نسل ملوك اليمن .. وبدأ يقرض الشعر
من صغره .. ولديه قصائد ممتازة فى سن التاسعة !..

يقولون إن أول ما نظمه من شعر هو :

بأبى من وددته فافترقنا
وقضى الله بعد ذلك اجتماعا
فافترقنا حولاً فلما التقينا
كان تسليمه على وداعا

لا تعرف (عبير) كيف نظم صبى هذه المعانى الناضجة ، ولا كيف
يعرف معنى اللقاء والوداع فى عصر سبق القضائيات بعشر
سنوات ، لكن المتنبى كما قلنا كان عبقرياً .. (موتسارت) جرب
أن يكتب أول سيمفونية له فى سن السادسة !
قال لها المتنبى فى غيظ :

- « د. طه حسين فى عصركم سوف يرى أن هذا البيت سخيف
مفتعل ، وإننى افتعلته لمجرد أن أقول (كان تسليمه على وداعا) ..
أى أنه شطر راق لى فبنيت عليه قصيدة كاملة لا معنى لها ! »
قالت ضاحكة :

- « مثل الرجل الذى يلعب كلبه الشطرنج ، لكنه غير منبهز
بهذا لأنه يغلب الكلب فى كل مرة يلعبان فيها ! »

- « لا أفهم مثالك هذا .. لكن الويل لك لو كنت تشبهيننى

بكلب ! »

رسمت على وجهها علامات الجدية ، متظاهرة بأنها لم تشبهه
بكلب ، وعادت تسأله :

- « وماذا بعد ذلك ؟ »

ذهب الصبى إلى البادية ليتعلم لغة العرب جيداً ، وهى سياسة
معروفة لدى من قرر أن يحترف الأدب ..

ومن بين كل شعراء العرب توقف طويلاً عند (أبو تمام)
(والبحتري) ..

الحقيقة أن هذه الحقبة كانت هى التى بدأت تنفك فيها الدولة
العباسية .. صارت هناك عشرات الإمارات والدول الصغيرة المتناحرة
عند الأطراف ، وهى فترة مستحيلة الحفظ أرهقت كل طالب
يدرس التاريخ ..

صراعات وتنافس بين إمارات صغيرة .. فتنة القرامطة .. إلخ ..

استولى البويهيون على بغداد ، واستولى الإخشيديون على
حكم مصر ، وأسس الحمدانيون دولتهم فى شمال الشام بعد
صراع مع الإخشيديين .

كل إمارة تطلب المجد لنفسها ..

قال لها المتنبى :

- « الشاعر العظيم يلعب فى زمننا ما تلعبه فى زمنكم قناة
فضائية كاملة لا هم لها سوى مدحك والإشادة بك .. هكذا عرفت
طريقى منذ اللحظة الأولى ، ولم أضيع وقتى .. سأكون الشاعر
الذى يتقاتل عليه الأمراء .. ثم أصير أميراً .. وسوف يأتى
الشعراء ليلقوا أمامى قصائد المدح .. »

هكذا نجد إته عاد إلى الكوفة بعد ما سيطر على اللغة العربية ..
اللغة العربية ذلك الحصان الجامح الذى يمكن أن يقهر أقوى
الفرسان وأعلمهم ..

- « كنت أعرف بالضبط ما أحتاج إليه كشاعر ، وقد حرصت
على تحصيله مبكراً جداً .. »

الآن جاء موعد بغداد .. الملتقى العلمى والأدبى الأهم فى
العالم العربى .. ربما فى العالم كله وقتها ..

ذهب هناك مع أبيه وهو فى سن المراهقة ، وهناك قابل
الكثيرين وتعلم منهم ، ومنها إلى الشام .. دمشق .. اللاذقية ..
حمص ..

هل هذه الخبرات الصغيرة هي ما يصنعنا ويشكل فلسفتنا فى الحياة ؟

حكى لها المتنبى أنه كان يمشى فى السوق ومعه خمسة دنانير .. رأى البطيخ الأخضر جميل اللون عند بائعه الذى شق ثمرة أو اثنتين ليظهر قلبهما الأحمر الذى يسر الناظرين ..

- « هل تبيعنى بطيخة بخمسة دنانير ؟ »

قالها للبائع .. فضحك هذا ساخرًا ورفض ..

عاد يكرر الرجاء لكن الرجل كان مصرًا .. وهكذا وقف الفتى الجائع الظمان ينظر للدنانير وينظر للبطيخ .. حسناء ليس معه مهرها وخمسة دنانير لا تغنيه شيئًا ..

هنا ظهر رجل متأنق يلبس ثيابا فاخرة، تبدو عليه الثقة، فاتجه نحو البائع وانتقى بطيخة ممتازة .. ثم سأل البائع عن ثمنها .. قال البائع النصاب :

- « بدينارين فقط يا سيدى ! »

دفع الثرى الدينارين وانصرف شاعرًا بالرضا عن نفسه ..

هنا سأل المتنبى البائع فى حيرة :

- « تبيع له بدينارين ، وتابى أن تبيع لى بخمسة ؟ »

قال البائع بلهجة من فهم الحياة منذ زمن :

- « ويحك ! .. إنه ثرى .. لديه مائتا ألف دينار ! »

كان هذا هو الدرس الأول والأقصى فى حياة المتنبى .. الأثرياء يحصلون على كل شيء ، ويحصلون عليه بأسعار أرخص من الفقراء .. من يدفع الثمن الباهظ هو الفقير ..

إنن لا بد أن يكون ثرىً .. لا بد ...

* * *

كتاب راق له عند بائع الكتب ..

راح يقلب صفحاته الثلاثين ويعيد نقلبيها ، فمل البائع وسأله :

- « هل تنوى شراؤه أم لا ؟ .. لن تستطيع قراءته كله وأنت

واقف هكذا .. »

ابتسم الشاعر فى ثقة ، وأعاد الكتاب للرجل وقال :

- « بل قد حفظته كله ! »

وفى اللحظات التالية برهن على أنه كان صادقًا !

* * *

من حين لآخر له سقطات ومبالغات لا بأس بها ، وقد نال
عشرة دراهم لا أكثر عن هذه القصيدة :

لم يخلق الرحمن مثل محمد
أحدًا .. وظنى أنه لا يخلق !

لاحظ أنه لا يتكلم عن (محمد) رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ولكنه يتكلم عن محمد آخر من بنى أوس يمتدحه بهذه المبالغة
الشنيعة ، وهي مبالغة لم تنظّل على الرجل الذى أعطاه عشرة
دراهم لينصرف عنه .. أى إنه بلغتنا أعطاه سيجارة وقال له
(اتوكل) ..

عامّة يميل المتنبى إلى التجاوز الدنيى كثيراً جداً ، وله أبيات يمكن
أن يشيب لها شعر رأسك .. هناك كذلك قصائد مطولة يمتدح فيها
أشخاصاً أهدوا إليه وجبة من السمك بالعسل والفسق ! يبدو أنه كان
مولعاً بالطعام الجيد إلى درجة (الدناوة) مثل (بشار بن برد) ..
إضافة لهذا كانت أشعاره فى تلك الفترة تتعمد غرابة الألفاظ فى
استعراضية واضحة .. كلما تقدم فى السن ازداد شعره سهولة ..

هو الآن فى العشرين .. هذه هى السن التى تحوم حولها
علامات الاستفهام .. يقولون إنه ادعى النبوة فى ذلك الحين ،
ويقال إنها إشاعة أطلقها المغرضون .. لكن هذا سبب اسم
(المتنبى) الذى التصق به للأبد ..

له فى هذه السن قصيدة شهيرة جداً يشبه نفسه فيها تارة
بالمسيح بين اليهود ، وتارة بسيدنا صالح فى ثمود .. وفى هذه
القصيدة يتكلم بلهجة القرامطة فيستحل دم الحجاج فى ثياب الإحرام ،
ويحرم الصلوات الخمس .. ثم فى النهاية يسخر من كل شىء لأنه
(محتقر فى همتى .. كشعرة فى مفرقى) .. باختصار لو عاش
فى القرن العشرين لصار من كبار المفكرين الفوضويين ..

هذا هو مستند الاتهام الأول أو Exhibit A كما تقول المحاكم
الغربية .. لم يدع النبوة بالمعنى الحرفى .. لكنه جذف كثيراً ..
إشاعة أم لا .. لقد دخل الفتى السجن عامًا كاملاً لتأديبه ..
ومن الواضح أن السجون فى ذلك العصر كانت تجربة أقسى
بمراحل من سجوننا الحالية .. لكنه سعيد الحظ لأنه لم يُعدم ..

قالت له (عبير) وهى ترتجف :

« لقد أعدم سقراط والحلاج لأسباب كهذه أو أقل .. »

قال فى خبث :

- « دعك مما لم يسجله الزمن .. لقد ألغيت الكثير مما قلت
فى ذلك العصر .. »

فى السجن كتب للؤلؤ وإلى الإخشيديين يطلب العفو ، ويقول :

- « وكن فارقاً بين دعوى أردت

ودعوى فعلت بشأوى بعيد .. »

أى أن على الوالى أن يفرق بين (أردت) و(فعلت) .. المتنبى أراد فقط .. لايد إلا يُعامل من أراد معاملة من فعل ..

كانت تجربة عصيبة لشاب طموح مثله ، وعندما خرج من السجن كان قد صمم على أن يبتعد عن قصة النبوة هذه ، وأن يجد أميراً أو ملكاً قوياً يلتصق به ليحميه ..

فى البداية تزوج من امرأة شامية ، أنجبت له ولده الوحيد (محمّد) ..

إن المتنبى فى الثلاثين من عمره الآن .. فى أنطاكية قابل ابن عم سيف الدولة ، ولقد سهل له الرجل أن ينضم إلى بلاط سيف الدولة ..

هذه كانت أجمل فترات حياته وأكثرها خصباً ..

لقد وصف كل شىء فى هذا البلاط ووصف حروب (سيف الدولة) وشخصيته العظيمة .. هذا أصدق شعره بالفعل لأنه آمن بنيل الرجل .. من منا لا يحفظ هذه الأبيات فى مدح سيف الدولة ؟

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلنى هزيمة

ووجهك وضاح ، وثغرُك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

صورة خالدة عبر الأجيال للبطل الياسم هادئ الجنان ، يرى الفرسان الشجعان يتساقطون جرحى ، لكنه ثابت كأنه يقف فى عين الموت .. ثابت حتى قال الناس إنه يعرف الغيب ويعرف أنه سينجو ..

كما قلت : كانت من أجمل فترات حياته ، لهذا كان لايد أن تنتهى .. الحساد يكترون والوشاة .. والمتنبى لا يجيد فن التواضع أو كسب الخصوم ، ولا يمنحك أبداً لفظة مجاملة أو مديح تحتاج لها . وهم لا يكفون عن الهمس فى أذن سيف الدولة : شاعرك هذا مغرور .. شاعرك هذا وقح .. شاعرك هذا معدوم الموهبة .

ثم

شاعرك أهان أختك وهى ميتة ..

كانت هذه هى نقطة أفتراق الطرق ..

* * *

الآن يجرب المتنبى الفصل الثانى من حياته فى مصر ..

فلو كان هذا فيلماً سينمائياً لكان أقسى الفصول وأقلها أحداثاً ..

إنه فى مصر مع حاكم لا يحبه ولا يفهمه .. وفى جو لم يعتده ..

أدركت (عبير) أن إقامة المتنبى فى مصر لن تطول ..

* * *

6- كافور ..

نهض المتنبي على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من
دوار ..
الويل لهم .. سوف يرون ..
هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحًا بسيفه، وكان له من اسمه
نصيب ..

* * *

لم يحب (كافور) المتنبي قط، لكنه لم يعلن هذا ..
من السهل أن تجده يتسم له، لكنه لا يعطيه كل كيانه، ويكتفى
بأن يمنحه مكافأة بسيطة ولا يعيره أذنه .. وبالطبع كان يعاملها
بجفاء مماثل باعتبارها تنتمي للمتنبي بشكل ما ..
كان المتنبي واضحًا .. هو لا يريد مالاً .. يريد ولاية .. يريد
أن يصير حاكمًا، وأن يعرف سيف الدولة هذا .. لكن (كافور)
أذكى من ذلك .. لقد فهم معدن المتنبي بنظرة واحدة، وقرر
ألا يسمح له بشيء ..

نحن الآن في مجلس كافور .. هذا هو شاعر من شعراء مصر
ينشد في حضرة كافور ..

المتنبي لا يحسن المجاملة ولا يخفى مشاعره .. هو يرى أن كل
هؤلاء حمقى لا يفقهون شيئاً فى الشعر .. لهذا يجلس ولا يصغى ..
بل يدمدم بفمه محدثًا جلبة تضايق الشاعر ..

عندما انتهى الشاعر من قصيدته نظر بعينين ناريتين تقتلان إلى
المتنبي وكذا فعل الجالسون .. لو أن النظرات نصال لمزقت عباءة
الشاعر العراقى وعمامته .. وتعلت أصوات همسات مسموعة :
« هذا لا يطاق .. »

« المتنبي لا يملك موهبة تبرر كل هذه الوقاحة، وكل هذا
الغرور .. »

أنشد المتنبي بصوت خفيض كأنه يكلم نفسه :

« أرى المتشاعرين غرّوا بذمى

ومن ذا يحمد الداء العضالا؟

ومن يك ذاقم مر مريض

يجد مرًا به المَاء الزلالا .. »

سأله كافور بصوت عال :

« ماذا تقول يا أبا الطيب ؟ »

قال المتنبي بنفس اللهجة السابقة :

- « أنا صخرة الوادى إذا ما زوحت

وإذا نظقتُ فإبنى الجـوزاءُ

وإذا خفيتُ على الغبى فعـاندر

ألا ترانى مقلة عمياء .. »

هذا غير معقول ..

فكرت (عبير) .. المتنبي يريد الظفر بحب وثقة كافور ، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يتنازل لحظةً ويجمال من حوله .. لهذا يخلق الأعداء حيثما كان .. والأعداء يصيبون سمومهم فى أنف حاكم مصر ..

هكذا مرت الأيام .. عام كامل مر فى مصر ..

المشكلة هنا تتلخص فى :

1 - كافور لا يثق به ، ولا يعطيه ما يريد .

2 - هو فعلاً لا يقابل (كافور) .. يتبعه لكنه لا يقابله ..

3 - الحياة خاملة فعلاً .. لا شىء يحدث وهو اعتاد حياة المغامرات مع سيف الدولة . المشكلة فى مصر هى بعدها عن الخطر .. فلا يتهددها الروم مثلاً كما فى الشام .. ربما

يهددها الفاطميون لكنهم بعيدون جداً .. دعك من أن مصر بلد سهل الحكم ، أهله أميل إلى قبول أى حاكم يحكمهم ، وليسوا من هواة الثورات والفتن كالعراقيين .. هكذا صارت حياة خاملة جداً لا تناسب طبيعته المغامرة القلقة الوثابة ..

4 - الحمى التى أصيب بها والتى جعلت مزاجه غاية فى السوء ..

تأملت نحول ذراعاه والأوردة البارزة على جبينه ، وقالت :

- « يبدو أن الأمر خطير .. أنت تفقد وزنك بسرعة فعلاً .. »

قال على الفور بيتاً قديماً له كتبه وهو مراهق :

- « كفى بجسمى نحولاً أننى رجل

لولا مخاطبتى إياك لم ترنى .. »

- « يا نهار اسود !! »

قلتها فى زعر وهى تضرب صدرها .. لولا أنه يتكلم لما رأته !..

معنى هذا أنه موشك على الانتهاء ..

ذهبت (عبير) خارج القصر تبحث عن طبيب .. هداها الناس إلى بيت قريب عليه لافتة تقول (د . محمد بن أبى بكر بن الصاوى - نطاسى مختص بأمراض الصفراء والقيلة واعتلال المزاج - حاصل على شهادة جالينوس) ..

دخلت إلى الطبيب وطلبت منه أن يأتى معها إلى القصر ، حيث ضيف (كافور) مريض جداً .. حمل حقيبتيه ولحق بها متوقفاً أجراً ممتازاً طبعاً ..

على الأرض جلس د. (محمد) مع المتنبى ، وقاس نبضه ثم فتح عينه وجسه ..

قال بعد تدقيق :

- « لا أرى أنك مصاب بشيء .. »

قال المتنبى وهو يجفف العرق على جبينه :

- « أيها النطاسى .. الحمى لا تظهر إلا ليلاً .. حمى وآلام عظام .. »

ثم أنشد أول شعر أعراض Symptomatology يعرفه الأدب العربى ، وربما آخره كذلك ، وهو دقيق جداً كالعادة :

- « وزائرتى كأن بها حياء

فليس تزور إلا فى الظلام

فرشت لها المطارف والحشايا

فعافتها ونامت فى عظامى

يضيق الجلد .. عن نفسى وعنهما

فتوسعه بأنواع السقام

كأن الصبح يطردها فتجرى

مدامعها بأربعة سجام «

قال الطبيب مفكراً ، وهو يعتصر لحيته :

- « هم م .. حمى لا تأتى إلا ليلاً .. تشعر بالبرد وتغضى نفسك ، لكنها لا تهدأ .. وتشعر بالألم فى عظامك .. همم ! .. ثم تخفتى مع طلوع الصباح .. »

هنا تدخلت (عبير) مقاطعة :

- « يقول لك يا دكتور إن مدامعها تجرى بأربعة سجام .. يبدو لى أن هذا الكلام خطير ! »

- « ليست سوى صورة بلاغية جميلة .. الشاعر تخيل أن الحمى حبيبة رقيقة لا تريد فراقه ، لذا تبكى بحرارة فيسيل دمعها من أربعة مجار .. لكل عين ركنان يسيل منهما الدمع .. كل ركن هو (سجم) .. »

كان فى ورطة .. إن وصف المتنبى للمرض دقيق جداً ، وحتى اليوم يرى أكثر الأطباء أنه يصف (البرداء) أو (الملاريا) وهى داء متوطن فى مصر وقتها ، بينما يرى آخرون أنه يصف الحمى المالطية (البروسلا) .. حمى ليلية مزمنة مع ألم فى العظام ..

قال الطبيب (الأحمق طبعا) للمتنبى:

- « لا بد أنك أكلت شيئا سبب هذه الحالة .. »
نظر المتنبى لعبير وتهدد ، وقال :

- « يقول لى الطبيب أكلت شيئا
وداؤك فى شرايك والطعام
وما فى طبيه أتى جواد
أضر بجسمه طول الجمام »

يقصد أن حالته نفسية .. قلة الحركة ورتابة الحياة هى سبب
مرضه .. بالطبع لا يؤمن الأطباء بهذا ..

على كل حال أخرج الطبيب أخلاطا عجيبة من حقييته وأوصى
المتنبى بشربها .. هذه الأخلاط تصلح لكل شىء من المغص
حتى التهاب الزائدة وحتى حصوة المثانة وسرطان البروستاتا ..
عندما غادر المكان أمسك المتنبى بالزجاجات كلها وسكبها
على الأرض ..

- « يقول لى إننى أكلت شيئا ..! .. بالطبع أكلت أشياء .. هل
يحسبنى مضرًا عن الطعام ..؟ إن حماقة هذا الرجل لا شك فيها .. »

نحن الآن فى أول ذى الحجة ، وعلامات اقتراب عيد الأضحى
فى كل مكان .. أبسطها ثغاء الخراف فى الشوارع ..
فوجئت بالمتنبى يجمع حاجياته وأشياءه فى ذات الصناديق
التي جاء بها من عند سيف الدولة ..

- « ماذا هنالك ؟ »

قال دون أن ينظر لها :

- « سأعود إلى الشام طبعا .. سئمت مصر ، وهذا الأحمق الذى
لا يعرف مكاتتى .. »

ثم سألها بشكل عارض :

- « هل تأتئين معى ؟ »

- « مهمتى ألا أفارقك .. »

- « إن اجمعى المتاع إلى أن أقابل (كافور) .. »

هكذا ظلت وهدما فى جناحه تجمع حاجياته .. كل العطايا التي
نالها من شعره ..

لقد أحسن استخدام شعره فعلا .. إنه يفتقر للمثالية الأخلاقية
لكنه شاعر عظيم .. لا أحد ينكر هذا .. وتذكرت كلمة (أفلاطون)
القديمة عن أن العباقرة غالبا ما يكونون واهنين أخلاقيا .. أتائين
وربما كانوا أشرارا كذلك ..

هذا الطيلسان .. هذه العبائة .. تلك العمامة .. هذا الخنجر
اليمنى المذهب ..

لكنه لم يعد بالشىء الوحيد الذى أراده فعلاً : الولاية .. أن
يحكم .. أن يأتى له الشعراء فى مجلسه ليلقوا الشعر وهو يلقي
لهم الدناتير ، والأهم أن يعرف سيف الدولة بهذا .. الآن لن
يعرف سيف الدولة سوى أن المتنبى لم ينل أى شىء عند كافور
وعاد يجر أذيال الخيبة ..

لم تر المقابلة ولم تحضرها .. لكنها عرفت أخبارها ممن
شهدوها .. وعرفت أنها كانت كارثية ..

لقد كان رفض كافور لرحيل المتنبى قاطعاً ..

كافور الأستاذ ذكى وحكيم ، لكنه يحتفظ بغرور الحكام الشرقيين :
لا أحد يتركنى إذا أراد .. أنا أطرد الناس لكن لا يفارقنى أحد .. هكذا
سوف يبقى المتنبى عدى ، أراد أو لم يرد .. سيبقى حتى أطرده أنا ..
لن يقال إنه ترك مصر و(كافور) ؛ لأنه لم يلق تكريماً هناك ..
كان كلام المتنبى حاداً ، ولايد أن لسانه انزلق مراراً ..

فى النهاية اقتحم جناحه حيث كانت عبير ما زالت ترتب
حاجياته ، فركل الصندوق الذى أغلقته ليتناثر ما فيه ، وهتف
مغضباً :

- « الوغد لا يسمح لى بالرحيل ! .. أنا سجين هنا ! »

- « إذن هو متمسك بك ! »

- « بل الغرض هو إذلالى .. لكن لا أحد يقدر على إذلال المتنبى
أبداً .. »

كادت تقول شيئاً ، لكنه أمسك بمعصمها بقسوة ، ورأت الغضب
عارماً فى عينيه .. ثم استجمع أنفاسه فقال :

- « سوف أهرب من كافور .. سأهرب من مصر كلها ! »

7- هروب عند الفجر ..

صاح صالح :

- « اتركوا ابنه (محسد) ! »

لكن صالحًا آخر قال :

- « بل يموت معه ! »

وسرعان ما سقط (محسد) ، ورأت (عبير) (فاتك) يصرخ
صرخة عظيمة ويندفع نحوها ملوحًا بسيفه .. أغمضت عينها
وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة ..

* * *

تعالى صوت التكبيرات يوم عيد الأضحى ..

« الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله .. ولا نعبد إلا إياه ..

« الله أكبر كبيرًا .. والحمد لله كثيرًا ..

« وسبحان الله بكرة وأصيلا .. »

جو الفجر الأزرق النقى البارد الندى ...

من الغريب أن هذا الجو يقترب برائحة الخراف وثغاتها من
بعيد فى جو فريد لا يعرفه إلا عيد الأضحى ..

قال لها (المتنبى) وقد غطى نصف وجهه بثلام ، وجمع أهم
أشياءه فى صندوق :

- « يمكنك القيام بدورك .. »

اتجهت (عبير) إلى خارج الجناح حيث كان ثلاثة الحراس
واقفين وقد أوشك النعاس على أن يغلبهم تمامًا .. أخرجت جهاز
التسجيل وقالت بطريقة مرحة عملية جدًا :

- « معذرة .. أريد أن أسألكم عن بعض الأشياء .. كيف يحتفل
أهل مصر فى عصركم بعيد الأضحى ؟ .. هذه نقاط مهمة للتحقيق
الصحفى .. فى عصرى كنا نقتنى (العيد فرحة) .. وبيتاع الأطفال
البالونات ويخرجون إلى الحدائق العامة .. ربما يذهبون إلى
حديقة الحيوان ليضايقوا الأسود ، ويسمموا فرس النهر ،
ويدفعوا القردة إلى الانتحار .. لكن ماذا عنكم أنتم ؟ »

ثم هتفت - وقد تذكرت - :

- « هل هناك حراس فى الخارج ؟ .. هاتوهم من فضلكم ..
أريد سماع رأى الجميع .. »

هكذا لحق بها ثلاثة آخرون ...

تطوع حارس يدين بأن يشرح لها ما يقومون به .. إنهم يتسلون بتبادل الصفعات والركلات .. هذا أجمل شيء .. متعة حقيقية .. كان يحكى هذا بينما انهمك الآخرون فى تأمل سحرها وجمالها ..

يمكنها أن ترى بعين الخيال المتنبى وهو يفتح الشرفة ، ثم يثب منها - وهو ارتفاع بسيط - إلى الأرض ، ثم يتسلل ليتسلق نطاق الأشجار والصور إلى حيث ينتظره جوادان سريعان ...

هى مشاركة فى عملية الهرب ، ولو عرف كافور لفتك بها لكنها كانت تعرف أنها ستلحق بالشاعر العراقي العبقرى المتمرد .. لن تبقى هنا ...

« لا إله إلا الله ..

« ولا نعبد إلا إياه .. »

انتهت من تسجيل الحوار والتقاط بعض الصور ، ثم شكرتهم بحرارة ..

- « لا تنسوا قراءة هذا الحوار بعد ألف سنة من الآن .. »

قال الحارس البدين :

- « هذا رائع !.. سوف أبتاع عشرة أعداد من هذه الجريدة .. سوف تسعد حماتى كثيراً عندما ترى صورتى .. »

ثنت (عبير) ركبتيها فى رشاقة ثم اتجهت إلى الخارج .. طبعاً هى غير سجيئة ، ومن حقها أن تخرج وتعود متى أرادت .. هكذا غادرت القصر .. دارت بسرعة حوله ، عندها سمعت حوافر الخيول ..

رأت المتنبى قادماً على صهوة جواده ، وقد جر الحصان الثانى من خلفه ، فدعاها للركوب بسرعة .. لا وقت للانتظار ...

وثبت على ظهر الحصان وضربته بكعبيها ليركض ، وانطلقت تلحق بالشاعر الكبير .. فى ذات اللحظة سمعت من يصرخ من داخل القصر :

- « المتنبى هرب !! »

لكنها لم تسمع الباقي لأن الحصانين كانا يركضان الآن بأقصى سرعة ..

بينما يدوى الصوت من كل المساجد تقريباً :

- « الصلاة جامعة !.. صلاة عيد الاضى اثابكم الله ! »

لابد أن الفرار من القسطنطينية استغرق ساعتين ، لأن الشمس كانت قد علت .. وسخنّت الموجودات ، وهناك فى الصحراء يجلس المتنبى على الرمال جوارها بينما الجوادان يلتقطان الأنفاس اللاهثة وقد أغرقها العرق ..

كان يهمس بأشياء وعيناه مغمضتان فأدرت أن شيطان الشعر
يزوره الآن ..

فضلت الصمت لأنه يصير عصبياً جداً فى لحظات كهذه ..

لما انتهى قال لها وهو يجفف عرقه :

- « لقد انتهى الأمر .. خلدت (كافور) للأبد ! .. هذه الأبيات
سوف يذكرها الناس طويلاً جداً .. اسمعى :

عيد بأية حال عدت يا عيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

أما الأحبة فالبيداء دونهم

فليت دونك بيداً دونها بيد

قالت ضاحكة :

- « هذا مقطع شهير جداً .. فعلاً هو من أخذ الشعر .. لكن

أين كافور فى الموضوع ؟ »

كور أنامله على شكل قمع بمعنى (انتظرى) ، وواصل الإتشاد :

- « إنى نزلت بكذابين ضيفهم

عن القرى وعن الترحال محدود

ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم

إلا وفى يده من ننتها عود »

قالت فى شىء من الحرج :

- « هانتذا قد بدأت فى قلة الأدب ! »

لكنه لم يعلق وواصل الهجاء :

- « أكلما اغتال عبد السوء سيده

أو خاته .. فله فى مصر تمهيد ؟

نامت نواظير مصر عن ثعالبيها

فقد بضمن وما تفتى العناقيد »

قالت مقاطعة :

- « هذا خطأ .. كافور لم يقتل سيده .. »

على كل حال هذا بيت شعر شهير جداً ويصلح لكل عصر ..
النواظير : جمع ناطور ، وهو حافظ الزرع . غفل الملوك عن
مصر وأهملوا فتمكن منها العبيد والأرذال ، فجمعوا الأموال
وأخمسوا من كثرتها .. مسكينة مصر التى تسرق بلا توقف منذ
عصر المتنبى حتى عصر (بقرة حاحا) قصيدة (نجم) الشهيرة ..

ويواصل المتنبى قصيدته العنيفة فائقة الشهرة :

- « لا تشتت العبد إلا والعصا معه

إن العبيد لأتجاس مناكيد

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن

يسيء بى فيه عبد وهو محمود

وأن ذا الأسود المثقوب مشفره

تطيعه ذى العضاريط الرعايد .. »

الأسود المثقوب مشفره هو كافور طبعًا ، الذى ثقبت شففته السفلى كدأب الزوج ، والعضاريط جمع عضروط ، وهو الخادم الذى يعمل من أجل طعام بطنه ..

هكذا أطلق المتنبي كل صديد نفسه وكل ما ادخره من حقد على كافور ليفجره فى لحظات .. بدا هذا الشعر لـ (عبير) قاسيًا جدًا على كافور وعلى مصر كلها .. فيه نزعة عنصرية لاشك فيها واحتقار للون الأسود شديد .. كافور بالنسبة له مجرد عبد أسود يجب أن يعاقب ويضرب بالعصا .. لاحظ أننا لم نذكر الأبيات البذيئة فى القصيدة ..

الحق أن شعورها نحو المتنبي متناقض ..

انبهار بموهبته ..

دهشة من غروره ..

ذعر من طموحه ..

خوف من أنانيته وقلة أدبه أحيانًا ..

عدم فهم لما يريده بالضبط ...

لقد انتهت الحقبة المصرية من حياة المتنبي ، وحن الوقت

ليبدأ فصل جديد ...

8- الشام من جديد ..

نظر المتنبي فى غيظ للغلام .. لو كان الوقت مناسبًا لجلده ، لكن لا وقت لهذا .. لذا تقدم بالحصان ليواجه الجمع ..

الحق أنه كان شجاعًا لاشك فى هذا .. وكان فارسًا .. إنه التناقضات فى ثياب إنسان ..

لم يكف المتنبي طيلة الرحلة إلى الشرق - ثلاثة أشهر - عن نظم أشعار تسب (كافور) حتى شعرت (عبير) أن الأخير يوشك أن يتحول إلى بخار نووى ..

يقول لها عن (كافور) :

- « يستخشن الخزّ حين يلبسه

وكان يبرى بظفره القلم »

يقول إن الرجل صار يجد الثياب الناعمة خشنة على بشرته ، برغم أنه حينما كان عبدًا كانت أظفاره غليظة لدرجة أنها تبرى القلم .. عبير شهدت مشاجرات كثيرة فى الحارة شبيهة بهذا ، من طراز (كنتم تحسبون اللحم دهانًا للرأس) أو (فليرحم الله

ماضيكم يا من كنتم لا تعرفون الكشرى عندما ترونه) .. فقط يقولها المتنبي ببلاغة وجمال ..

كان هذا طريقاً .. أن تهرب من مصر وأن تترصدك الأخطار في كل صوب ، وأن يتهددك في كل لحظة خطر أن يقبض عليك الحراس وتُساق إلى كافور من جديد ، وبرغم هذا أنت لا تكف عن نظم الأشعار :

« لَتَعْلَمَ مِصرَ وَمَنْ بِالعِراقِ

وَمَنْ بِالعِواصمِ أَنى الفَتى

وَأنى وَقَيْتُ وَأنى أَبَيْتُ

وَأنى عَتوتِ على مَنْ عَتَا

وَمَاذا بِمِصرَ مِنَ المِضحكاتِ

وَلَكِنَّهُ ضَحِكُ كَالْبُكا »

هتفت عبير في مرح كأنها اكتشفت شيئاً جديداً :

« هذا البيت الأخير : وماذا بمصر من المضحكات .. شهير جداً .. ومن الغريب أنه ما زال صالحاً . لو تقاضيت قرشنا عن حق الأداء العلنى لكل مرة يستخدم فيها لصرت مليونيراً .. »

لكن المتنبي لم يكن يصغى .. كان يواصل السباب المقفى الموزون :

« وَأَسودُ مشفره نِصفُهُ

يُقَالُ لَهُ أَنتَ بَدْرُ الدُّجى

من جديد لا يكف عن العنصرية .. شفة كافور السفلى ضخمة تبلغ نصف جمه ، وبرغم هذا ينافقه الشعراء قائلين إنه بدر الظلام ..

قالت (عبير) فى غيظ :

« لاحظ أنك مدحته كثيراً جداً .. لا تقل لى إنك لم تكن ترى مشفره هذا وإنك اكتشفته فجأة .. »

قال على الفور :

« وشعر مدحتُ بِهِ الكَرَكَنَ

بَيْنَ القَريضِ وَبِينَ الرُقَى

فَمَا كانَ ذَليكَ مَدحاً لَهُ

ولَكِنَّهُ كانَ هَجَوَ الوَرى »

أولاً : كافور هو الكركن .. أى هو خرتيت آدمى .. ثانياً : شعر المدح لم يكن مدحاً ، بل كان نوعاً من الرقى ضد جنون الرجل .. لم يكن مدحاً لكافور لكنه شتيمة للناس الذين اضطروا المتنبي

لمدح أمثال كافور .. أى إن كل بيت شعر مدح به (كافور) هو فى الحقيقة لوم للمجتمع .. إن الشاعر لن يعترف أبداً بأنه أخطأ ، ولن يقبله فى الكلام أحد لأنه جاهز بالمنطق الملتوى فى أية لحظة ..

قالت له متعمدة إغاظته :

- « هناك بيت من الشعر لك يقول :

« وإذا ما خلا الجبان بأرض

« طلب الطعن وحده والنزالا ..

« ألا ترى أنك تمارس بالضبط ما وصفته فى هذا البيت ؟ أنت تحارب حربياً ليس فيها خصم سواك ، وهانتذا تطعن وتبارز وتكر وتفر .. »

قلص وجهه فى استخفاف ، وقال :

- « ظريفة وذكية كذلك ؟ .. ما شاء الله ! »

الحقيقة كما قال طه حسين : المتنبى فى قصته مع كافور كلها صغير حقاً.. صغير حين مدح ، وصغير حين هجا ، وصغير حين رضى ، وصغير حين غضب ، ولكن صغره هذا لا يمنعه من أن يهجو فيجيد ، ومن أن يريد إضحاك الناس فيبلغ ما يريد ..

هما الآن يدنوان من الشام .. لقد فر المتنبى من مصر ولن يعود لها أبداً ..

ربما فكر فى الاتجاه غرباً ليعيش عند الفاطميين فى المغرب ، لكن هذا يعقد الأمور أكثر لأنه يبعده عن أحلامه بالعراق والشام .. فى كل مرة سيكون عليه أن يمر على كافور !

* * *

من أيّة الطرق يأتى نحوك الكرم ؟

أين المحاجم يا كافور والجلم ؟

سادات كل أناس من نفوسهم

وسادة المسلمين الأعيد القرم

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم

يا أمه ضحكت من جهلها الأمم ؟

ما أقدر الله أن يخزى خليقته

ولا يصدق قوماً فى الذى زعموا

إهانات .. إهانات .. لا تنتهى .

على كافور أن يأتى بالمحاجم والمقصات (الجلم) وهى عدة الحلاقين فى ذلك العصر ، ليمارس عمله الطبيعى الذى خلق له : الحلاقة ..

بل إن هذه الإهانات تتجاوز كافور الإخشيدى إلى أهل مصر أنفسهم .. سخرية من عاداتهم فى حفا الشوارب معتبرين هذا جزءاً مهماً من التدين .. إنهم ارتضوا أن يكون سيدهم قزماً عبداً .. وكافور يجلب الوبال على الإسلام لأن الملحدين يقولون : هذا هو المسلم الذى يريدون أن تكون مثله .. إذن كافور يجب أن يُقتل ، فإن لم يُقتل فالله قادر على أن يزيله من الوجود ، فتزول ادعاءات القوم ..

على كل حال نتذكر هنا قول طه حسين : « ما ينبغى أن نحب الشعراء أو نبغضهم لأنهم مدحونا أو هجونا ، وإنما ينبغى أن نعرف الشعراء أو نكرهم لأنهم مدحوا فأحسنوا المدح ، وهجوا فأجادوا الهجاء » .

الحق إن (كافور) نال الخلود فعلاً ، ولكن على طريقة المتنبى .. على من يغلظ فى معاملة المتنبى بعد اليوم أن يعمل له ألف حساب ...

مع المتنبى سافرت (عبير) إلى الكوفة ..

الطريق كان مزيئاً بزينة من نوع خاص .. حرائق .. بيوت مهدمة .. جثث مقطوعة الرأس .. جثث مصلوحة .. رعوس مقطوعة ، لا يبدو أنها تخص تلك الأجسام ..

- « القرامطة .. نحن فى ذروة عصر فتنة القرامطة .. »

قالها كئبه يلقى معلومة عبارة .. لا تعرف تفاصيل فتنة القرامطة ، لكنها الآن تعرف ما يكفى : هم يتركون وراءهم آثار أقدام على شكل جثث .. الحق إن الدولة المركزية مهمة جداً فى العالم الإسلامى ، ومن نونها يفسد كل شىء وتتآكل الأطراف فالقلب .. أشياء كهذه ما كانت لتحدث فى زمن قوة العصر العباسى أو الأموى ..

لكن هذا الطموح المجنون القلق لدى الشاعر لا يستقر فى موضع واحد ..

هكذا انطلق إلى بغداد ..

قالت له فى شىء من السخرية ، وهما يدخلان المدينة الكبيرة .. عاصمة العالم الثقافية وقتها :

- « ملك جديد .. وقصائد مدح جديدة .. وإحباط ، ثم قصائد هجاء بديئة .. إن حياتك تمشى على وتيرة واحدة .. »

التقط بعض البريقال من بائع عجوز فناولها واحدة وبدأ يقشر أخرى لنفسه ، وقال :

- « بالعكس .. الحاكم هنا هو (المهلبى) .. إنه من البويهيين .. هؤلاء هم خصوم (سيف الدولة) المعتادون .. لو امتدحتهم لكانت كارثة .. »

تذكر التقسيم الذي ذكرناه : الحمدانيون فى الشام .. البويهيون فى بغداد .. الإخشيديون فى مصر ..

ثم ناول البائع نقوده ، وأردف :

- « ما زلت أفكر فى (سيف الدولة) ، وأشعر أنتى سأعود له يوماً .. معنى مدح (المهلبى) أن أقطع جسورى نهائياً .. »

- « إذن لماذا تزوره ؟ »

- « لأنه لابد من ملك أو حاكم أكون فى كنفه .. أنا بحاجة

للطعام لو لاحظت هذا .. »

وقذف باقى البرتقالة لغمه ليربها معنى كلماته ..

كان جو قصر (المهلبى) كارثة حقيقية .. لهذا ارتبط اسم (المهلبى) فى ذهنها بأسماء الأشرار فى الأفلام العربية ..

راحت (عبير) تبحث حولها عن مفتش الرقابة على المصنفات الفنية فلم تجد ..

هذا الجو من الخلاعة والمجون لم تره من قبل إلا فى الأفلام الدينية التى تصور حياة الجاهلية ، وعندما زارت الأبيقوريين فى رحلتها مع الفلسفة ..

راقصات خليعات فى كل مكان ، والخمر تسيل أنهاراً .. ضحكات ماجنة .. فجور .. تجديف ..

هنا كل شىء مما يودى بالمرء إلى جهنم .. ثم إنه جو لا يناسب أنثى على الإطلاق .. أعنى أنثى غير مغنية ولا راقصة ..

الغريب أنه جو لم يناسب المتنبى كذلك ..

من جديد وللمرة الألف تكتشف أن هؤلاء الطموحين لا يميلون للهو بيتاً .. كأنهم رصاصة انطلقت نحو هدفها لا تحيد ..

المتنبى يريد السلطة والنفوذ والصيت ، فلا وقت لديه بضيعه مع هؤلاء السكارى الذين ذهب الخمر بوعيمهم ولم يعودوا يعون قولاً ..

كان يمقت الخمر بجنون ؛ لأنها تذهب بالعقل وتلوى اللسان ، وهو لا يواجه الدنيا إلا بسلاح واحد هو عقله ولسانه .. لقد جلب له الساقى كأساً فسكبها على الفور ، وقال :

إذا ما الكأس أرعشت اليبدين

صحوت .. فلم تحل بينى وبينى

وهو تعبير ذكى .. الخمر تحول بين المرء وبينه ..

هكذا كان يدخل مجلس (المهلبى) ، و(عبير) تركض فى أثره كدجاجة مذعورة ..

يجلس فيرحب به الحاكم ..

يصمت ..

لا يقول حرفاً مهما قالوا أمامه ومهما تحدوه فى الشعر ..
فقط يبتسم ابتسامة صفراء ويظل صامتاً يراقب كل هذا فى شىء
من التعالى ...

فقط قال ذات مرة بيت الشعر الذى يعتبر دستور البرود :

وَأَتَعَبُ مَنْ نَادَاكَ مِنْ لَا تُجِيبِهِ

وَأَغِيظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلْ

إذا أردت أن تتعب خصمك فلا تشاكله ، وإذا أردت أن تتعب
من يناديك فلا تجبه .. هكذا تجعله يغلى ويلتهم أنه لو استطاع
بلوغها ..

لا بد أن الوصول لهذه الفلسفة أتعبه حقاً وهو العصبى طويل
اللسان ، لكنه كان عبقرياً فى العثور على طرق الاستفزاز
لخصومه .. فيما مضى كان يرد بعبارات موجهة ، واليوم يصمت ..
طال بقاؤه سبعة أشهر فى بغداد ..

وفى النهاية رأته (عبير) المشهد المعتاد : المتنبى يجمع حاجيته
فى صناديق .. يأمر خدومه بإعداد الخيول .. لقد صار هذا مملاً .
الرجل يطارده حلمًا .. وهذا الحلم يجرى بسرعة لا توصف ،
من الكوفة إلى مصر إلى بغداد إلى

لقد انتهى الجزء الخاص ببغداد من حياته ..

9- ما أنصف القوم ضيبة ..

هنا بدا الطريق مسدودًا ..

لقد كان هناك مجموعة من الفرسان - نحو الخمسين - يسدون
الطريق .. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم ..
بعضهم على سرج جواده ، وبعضهم يجلس على الأرض يلعب
نصل سيفه ، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى
لا تتخشب ..

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان ..

ارتحل المتنبى إلى شيراز ليكون مع (عضد الدولة ابن بويه
الديلمى) ...

الحقيقة أن اختياره لشيراز لغز ، فهو لم يكن يميل للفرس
بحال . ربما كان السبب هو إظهار ضيقه من العرب الذين لم
يظفر منهم بما أراد .. وربما لأنه أراد أن يصل إلى بغداد ..

هناك كتب المتنبى عن (ضيبة بن يزيد) - وهو من القرامطة -
أبياتاً من الشعر فى غاية البذاءة ، مطلعها :

مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضِيَّةَ
وَأَمَّةَ الطَّرْطُوبَةَ
وَإِنَّمَا قُلْتُ مَا قُلْتُ
رَحْمَةً لِمَحَبَّةِ
رَمَوْا بِرَأْسِ أَبِيهِ
وَيَاكُوا الْأُمَّ غُلْبَةَ

معذرة !.. لا أجرؤ على الشرح ، كما لا يمكنني استكمال أبيات القصيدة .. فقط لنعرف أنه يسخر من الأم والأب سخيرية فاحشة فعلاً ..

في زمن يفهم فيه كل الناس الشعر ، وفي زمن تنتقل فيه أبيات الشعر مع القوافل كأنها الموجات الفضائية ، وفي زمن لا شرطة فيه .. يجب على المرء أن يحذر فيما يقول ، وهو ما لم يفعله المتنبي ..

(ضية) من القرامطة وهم قوم شديدو الخطر .. كما يقولون في أفلام المافيا :

Nobody messes with the mob أى (لا أحد يعبت مع المافيا) ،

فإن العبت مع القرامطة لعبة خطيرة جداً ..

(فاتك بن أبى جهل الأسدى) .. هل سمعت هذا الاسم ؟ .. مخيف .. أليس كذلك ؟ .. هل يمكنك أن تتخيل صاحبه ؟ .. جميل جداً ..

(فاتك) كان يشرب الخمر عندما جاءه بعض الرجال الممتنعين فى الحانة ، ودنا منه أحدهم ليهمس فى أذنه :

- « المتنبي .. »

- « ماله ؟ »

- « قال شعراً فى ابن أختك .. وفى .. فى أختك كذلك .. »

صاح بصوت كالرعد :

- « قله ! »

- « لا أستطيع .. »

بيده الغليظة اعتصر (فاتك) عنقه وأخرج خنجرًا بحجم السيف ، وسيفًا بحجم الصاروخ العابر للقارات ووضع على أوردته .. سوف يذبحه ذبحًا إن لم يقل ما يعرف ..

قال الرجل وهو يوشك على البكاء :

- « مَا أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضِيَّةَ

وَأَمَّةَ الطَّرْطُوبَةَ .. »

صرخ (فاتك) صرخة ارتجت لها جدران الحانة ، وهتف :

- « طُرْطُبة؟ .. أختى أنا طُرْطُبة؟ »

- « ما بقى أسوأ .. »

وأنشد بقية الأبيات .. هنا كان (فاتك) قد قرر أن يبدأ ليلته بالذبح ، ويبدأ ضحاياه بهذا المسكين الواقع فى قبضته ، لكن الرجال أقنعوه أن يهدأ .. ما على الرسول إلا البلاغ ..

نهض (فاتك) ومسح فمه بظهر يده ، وهتف :

- « نعم .. المتنبى !.. أريد هذا الوغد !! »

كانت (عبير) مع المتنبى فى أصفهان فى ضيافة (أبو العباس صاحب بن عباد) .. لقد ذهب المتنبى هناك مع ابنه الوحيد (محمّد) وغلامه (مفلح) .. (مفلح) الخادم المثقف الذى يرفض أن يعامل كخادم ، وهو يحفظ من الشعر أضعاف ما يحفظ (المتنبى) و(أبو العلاء) و(أبو تمام) معاً ..

كان مطلب (العباس) بسيطاً وغريباً فى الوقت ذاته :

- « امدحنى ! »

نعم .. قواعد اللعبة معروفة ، لكنها لا تلعب بهذه البساطة ولا أحد يكشف أوراقه بهذه الطريقة ، وإلا فسد الأمر كله وبدا عبثياً .. لكن المتنبى بدا ميالاً للتسلية ، لذا مال على المنضدة سائلاً :

- « كم ؟ »

- « سأجزل لك العطاء .. نصف ثروتى .. »

لابد أن هذا أعلى سعر فى التاريخ عرض على شاعر لأجل قصيدة مدح ، لكن المتنبى كان زاهداً فى هذا كله ، ليس لأنه يمقت المال ، بل لأنه يرغب بشدة فى شيء آخر : السلطة .. فيما بعد سألته عبير عن سبب هذا التمنع ، فقال :

- « لو كنت جائعة ظامنة فى الصحراء ، ووجدت كيساً مليئاً بالدنانير فماذا تفعلين؟ .. تتركينها طبعاً .. لا جدوى منها .. »
لكن هذا الرفض المتكرر لقول الشعر أورث (أبو العباس) حقداً شديداً على المتنبى ..

وفى النهاية ودع المتنبى الرجل عازماً على العودة إلى بغداد ، فكان الفراق بارداً فعلاً...

وداعاً شيراز ..

أنت كغيرك من البلدان لم تمنحى المتنبى شيئاً ولن يفتنك أبداً ..
وعلى باب المدينة قال واحداً من أروع أبياته الشعرية وأقواها :

رماى الدهر بالأرزاء حتى

فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام

تكسرت النصال على النصال

السهم ملأت قلبه حتى لم يعد هناك مكان عليه يمكن أن يمر
منه سهم جديد ، وهو ما يعنى كذلك أن كثرة المعاناة علمته الصبر
فلم يعد من شىء قادراً على إضافة جرح جديد له .. طه حسين
يجد هذين البيتين سخيفين ، على كل حال ليس فيهما جديد ...

هكذا يرحل - المتنبى لاطه حسين - ومعه (عبير) وابنه
وغلامه .. لم يتوقع أن ما خلفه وراءه من أحقاد يمكن أن
يتحالف ضده ..

فى هذا الوقت تم الاتصال سرّاً بين (أبو العباس) وخصم
لدود للمتنبى .. إن الرجل فى الطريق قريبكم .. لو لم تغتموا
الفرصة فقد لا تعود أبداً ..

فوجئ صديق المتنبى فى (واسط) (أبو نصر بن محمد
الجبلى) بزيارة من رجل مرعب ضخم الجثة ..

قال له مقدماً بطاقته :

- « أنا (فاتك الأسدى) .. »

- « تشرفنا .. »

نظر (فاتك) حوله بعين وقحة فضولية ، ثم سأل (أبو نصر) :

- « هل تعرف أين يوجد هذا الشاعر .. الذى يدعى .. يدعى .. »

أعتقد أن اسمه (المتنبى) ؟ »

- « لم تريده ؟ »

- « كل خير .. له معنى مال أرجو أن أوصله له .. »

فكر (أبو نصر) قليلاً ولم يستطع أن يبتلع الرجل .. ليست
هذه نظرات رجل أمين يريد إعادة مال لصاحبه ، بل هى نظرات
سفاح .. هكذا قال بعد تفكير :

- « فى الحقيقة .. لم أراه منذ عام .. »

نظر له (فاتك) بعينين تثقيبان الحجر كأنما يتأكد من صدقه ،
ثم تهيأ للرحيل مع رجاله المرعبين مثله ، هنا سأله (أبو نصر)
كأنما خطرت له فكرة ما :

- « هل أنت من القرامطة ؟ »

- « نعم .. »

الاسم المرعب يتردد من جديد .. القرامطة بتنظيمهم السري الشبيه بالمافيا ، وذبحهم للحجاج وقطع الطرق .. لكن السؤال الأهم هو :

- « هل أنت قريب (ضبة بن يزيد) ؟ »

قال (فاتك) في بساطة :

- « أنا خاله !.. هيا بنا يا رجال .. »

وابتعد القوم والأرض ترتج ارتجاجاً تحت أقدامهم الغليظة .. صوت سيوفهم تقعقع في قرابها .. يجب أن يعرف المتنبى بأمر هذه الزيارة .. يجب ...

* * *

كان المتنبى الآن في بداية الرحلة ، عندما ظهر فارس على جواد يركض مسرعاً .. لما دنا أكثر عرف المتنبى فيه صديقاً له ..

ترجل الفارس لاهناً وراح يجفف عرقه ، فقال المتنبى يقدمه

لعبير :

- « (عبير عبد الرحمن) صحفية .. (أبو نصر بن محمد الجبلى) .. صديقى .. »

قال الفارس فى ضجر من لا وقت عنده لهذا الهراء ، ودون أن ينظر لها :

- « تشرفنا .. »

ثم استدار للمتنبى ، وصاح فى ذعر :

- « هذه الفلاة خطيرة .. أعدائك كثيرون .. (فاتك الأسدى) خال (ضبة) يبحث عنك ، وهو بالتأكيد لا يريد دعوتك على العشاء .. لقد ربت أن يصحبك عشرون فارساً فى رحلتك لحمايتك .. »

قال المتنبى فى خفة :

- « ولم لا ترسل مائتين ؟ .. يا صاحبنى ليس الأمر بهذه الخطورة .. »

- « أعتقد أنه كذلك .. »

- « إن معى سيفى وابنى وخادمى .. هذا أكثر من كاف .. »

قال (أبو نصر) :

- « ألم تقل فى شعرك :

« الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول ، وهى المحل الثائى ؟ »

- « بلى .. »

هنا تدخل غلام المتنبى وهو - كما قلنا - فتى ثرثار مثقف جداً وكثير التدخل فيما لا يعنيه :

- « معنى هذا البيت أن العقل أهم من الشجاعة .. ويجب الأخذ به قبل كل شىء .. فلماذا لا تنفذ ما تؤمن به ؟ »

قال المتنبى فى غيظ ، وهو ينظر للخادم نظرة كارهة :

- « أحياناً يقول الشعراء كلاماً لا يؤمنون به تماماً .. أحياناً ترغمهم شياطين الشعر أو يرغمهم تدفق الكلمات والقوافى على قول ما لا يريدون .. وهناك بيت آخر لى يقول :

يرى الجبناء أن العجز عقلٌ

و تلك خصائص الطبع اللئيم

وأنا لست جباناً ولا أعتبر العجز عقلاً .. والآن احرص .. »

لكن (عبير) عرفت الإجابة .. إنه موعد مع قدره لا يريد أن يخلفه أو يؤخره ..

همس الغلام لها :

- « تفكرين فيما أفكر فيه ؟ .. إنها دراما إغريقية ! »

نظرت له فى دهشة لأنه قرأ أفكارها .. دراما إغريقية فعلاً .. كأن الرجل قرأ قصة حياته وقرر أن ينفذها حرفياً .. لا يريد أية أخطاء أو تأخير فى المواعيد ..

وبالفعل ودع المتنبى صديقه شاكراً ، وانطلق مع رفاقه ..

10- أنياب الليث ..

نحن الآن غرب بغداد .. منطقة (دير العاقول) ..

العام هو 354 هـ ..

هناك مدرعة أمريكية تحترق إلى جوار الطريق ، وهو هذا الخلط المعتاد من فانتازيا ، لكن (عبير) خطر لها أن هذا البلد لم ينعم بالهدوء قط في حياته الطويلة .. وما أشعله القرامطة فى ذلك العصر ، أشعلته صواريخ (كروز) فى عصرنا هذا .. متى يكون العراق آمناً وينعم بثروته ومستحقات تاريخه العريق العظيم ؟

هنا بدا الطريق مسدوداً ..

لقد كانت هناك مجموعة من الفرسان - نحو الخمسين - يسدون الطريق .. واضح أنهم لم يأتوا للترحاب بالشاعر العظيم .. بعضهم على سرج جواده ، وبعضهم يجلس على الأرض يلمع نصل سيفه ، والبعض يدرب ذراعه على رمى الرمح حتى لا تتخشب .. هؤلاء جاءوا من أجلى ...

توتر المتنبى واعتصر اللجام بقوة ليوقف الحصان ..

الآن يراه بوضوح تام .. هذا الجسد الضخم واللحية المنتفشة والنظرات النارية .. إنه (فاتك بن أبى جهل الأسدى) .. هو

بعينه .. بقوته وشراسته .. والأسوأ أنه غاضب .. لكنه يكشر عن أنيابه فى شبه ابتسامة ..

* * *

إذا رأيت نيوب الليث بارزة

فلا تظنن أن الليث يبتسم

* * *

قالت (عبير) فى رعب وهى تعتصر رقبة جوادها :

- « ماذا نفعل ؟ »

قال المتنبى دون أن يهتز :

- « تراجعى للوراء .. لا شأن لهم بك .. الأمر بيننا .. »

قال الخادم (مفلح) متفلسفاً :

- « لا شأن لنا بهذه القضية .. الخدم والنساء ينجون ، بينما هم يريدون رأس سيدي المتنبى لا أكثر ! .. سوف ينتهون بسرعة ونمر .. »

نظر المتنبى فى غيظ للغلام .. لو كان الوقت مناسباً لجده ، لكن لا وقت لهذا .. لذا تقدضم بالحصان ليواجه الجمع ..

الحق أنه كان شجاعاً لا شك في هذا .. وكان فارساً .. إنه التناقضات في ثياب إنسان ..

ولو أن الحياة تبقى لحى

لعددنا أضلنا الشجعانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ

فمن العجز أن تكون جيانا

هذا حق .. لو كان الجبن يطيل العمر لكان الشجعان أبله
البلهاء وأغبي الأغبياء ..

عيناه على عيني (فاتك) الناريتين ..

استدار (فاتك) لبعده (سراج) دون أن يبعد عينيه عن الشاعر
الكبير ، وأمره :

- « يا غلام .. الدرع .. »

ناوله (سراج) الدرع فلّفه على صدره .. كأنه بحاجة لحماية -
ووضع الخوذة .. ثم تقدم نحو المتنبى وهو يلوح بسيفه .. لما
صار الرجلان على بعد مترين ، قال (فاتك) :

- « قبحاً لهذه اللحية يا سباب !.. ألسن القائل (الخيل والليل

والبيداء تعرفنى) ؟ »

في ثبات قال المتنبى دون أن يطرف بعينه :

- « أنا عند ذلك يابن للخناء العفلاء .. »

لم تفهم (عبير) معنى هذا ، لكنها قدرت أنها سبة مهينة
أو بذئنة ... بالفعل هي كذلك كما أن شرحها يحتاج إلى طبيب
أمراض نساء ليعبر عن المعنى ..

وعلى الفور انطلق المتنبى يعمل سيفه في القوم ..

كان الحصان يبعثر النقع من حوله ، ومن فوقه لوح المتنبى
بسيفه وصرخ صرخة هائلة .. هوى بسيفه على عنق أحد
الرجال فطارت رأسه متدرجة تحت حوافر الحصان ..

وانطلق رمح نحوه لكنه اتحنى فتفاداه في اللحظة المناسبة ..
عندما أوشك المتنبى أن يضرب عنق الرجل الثالث ، شعر
بالأرض تميد تحت أقدام الحصان ..

إن للخيل عادة ذميمة هي أنها تتعثر في اللحظة غير
المناسبة ، وقد هوى حافر الحصان في حفرة في الأرض فأطلق
صهيقاً ، ثم تعثر ليسقط على قائمته الأماميتين ..

طار الرجل ليسقط على وجهه وسط الغبار ، وللحظة حسبت
(عبير) أن رأسه طار كذلك ، ثم أدركت أنها العمامة ..

نهض المتنبى على قدميه ولوح بسيفه برغم ما يشعر به من
دوار ..

الويل لهم .. سوف يرون ..

ثم أدرك على ما يبدو ضعف موقفه ، فأطلق ساقيه للريح ،
وصاح فى جماعته :

« فلتهرب ! »

ووثب على جواد (عبير) لأنها أخفهم وزناً فجوادها يتحمل ثقل
اثنتين .. كانت عبير ترى هذا الرأى .. ألم يقل المتنبى ذاته :

« الرأى قبل شجاعة الشجعان

هو أول ، وهى المحل الثانى ؟ »

من الشجاعة أحياناً أن تفر من الموت الأكيد ..

لكن الغلام الفيلسوف (مفتح) قال للمتنبى :

- « كيف تهرب يا سيدي ؟ .. ألمت القائل : الخيل والليل والبيداء
تعرفنى .. والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟ .. معنى هرويك أن
يموت هذا الشعر ، ولا تصير لكلماتك معنى .. هناك شاعر فرنسى
سيرفه العالم بعد قرون اسمه (راتبو) .. اضطر أن يعمل نخاساً
للعبيد ، وكان الحل الشريف الذى وجدته هو أن يعتزل الشعر ؛

لأنه هذا أفضل من أن يقول شيئاً ويفعل شيئاً .. لو هربت اليوم
فمن الأفضل أن تهجر الشعر للأبد .. »

فيلسوف حقاً .. والأهم أنه يعرف أى شعراء فى فرنسا
سيولدون بعد قرون ..

نظر له المتنبى طويلاً ، وتمنى أن يحطم رأسه ، ثم قال من
بين أسنانه :

- « قتلتنى يا هذا ! .. قاتلك الله !! »

واستدار ليواجه أعداءه ...

هنا تقدم نحوه (فاتك) ملوحاً بسيفه ، وكان له من اسمه نصيب ..

هوى (فاتك) بسيفه على عنق المتنبى فأطاره .. سقط الشاعر
الكبير على الأرض يتشطح فى دمه ، فأحاط به الفرسان يفرسون
فيه رماحهم ...

صاح صائح :

- « اتركوا ابنه (محسد) ! »

لكن صائحاً آخر قال :

- « بل يموت معه ! »

وسرعان ما سقط (محمّد) ، ورأت (عبير) (فاتك) يصرخ
صرخة عظيمة ويندفع نحوها ملوحًا بسيفه .. أغمضت عينها
وتأهبت لشعور من يفقد رأسه فجأة ..

لكن الرجل توقف فى منتصف المسافة ، وأنزل سيفه وهتف
وهو يدور حولها بحصانه :

« لا .. فاتك) لا يفتك بالنساء .. »

قال لها (مفلح) فى حماس :

« هل رأيت ؟ .. النساء والخدم ينجون دائماً ! .. هذه مزية
إلا يكون المرء مهماً .. »

لكن (فاتك) هوى على رأسه بسيفه ، وهو يصيح :

« لا .. النساء فقط .. أنا لا أستثنى الخدم ! »

إنهم يمثلون بالجثة .. يحفرون حفرة كبيرة فى الأرض يلقون فيها
الجثث التى احتشد عليها الذباب وراح يخرج من الأكوف .. الفم
الذى ألقى روائع الشعر العربى مغلق للأبد .. لن يفتح ثانية ..

يردمون التراب ، ثم تمشى الخيول فوقه لتدكه أكثر .. وتتطلق
الحوافر مبتعدة ، وعبير تقف وحدها فى لا مكان .. لا تعرف أين
تذهب .. لا تعرف ما تعتقده ..

لكنه دائماً يأتى فى لحظات كهذه ..

هذا هو يخرج من وسط الغبار والنقع .. يمشى وسط الحر
ويخترق سحب الذباب ..

المرشد ..

- « لقد انتهت المغامرة يا (أليس) ، ولاقى المتنبى نهايته
فى سن الواحدة والخمسين .. يبدو أن علينا أن نرحل .. »

وقفت لحظات تنظر إلى القبر الذى لم تعد علامة تميزه سوى
حوافر الخيول .. وقالت باكية :

- « لا أعرف إن كنت أبكى عليه كعبقرى مات بالسيف ، أم أشتم
فيه كشتام تلقى عقابه ؟ .. هل آخذ العبرة من نهايته باعتبارها
جزاء الطموح الزائد ، أم أرتجف لأن الرجل ظل يطارد حلمه
حتى القبر فلم يفر به قط ؟ .. غنه مأساة إغريقية كاملة .. »

- « يمكنك أن تفعل وتشفى بهذا كله .. الرجل خليط من كل
شئ .. »

الطفل العبقري المولع بالشعر ..

الشاب الذى يدعى النبوة ويخدع الناس ..

السجين المقهور ..

صديق سيف الدولة المعجب بمليكه ..

الصديق المطعون فى كرامته ..

المنافق المتملق لكافور ..

الهارب الغاضب على كافور ..

صديق الفرس ..

الشتام السباب ..

الفارس المقوار ..

كل هذا شخص واحد ..

حقاً.. هناك أشخاص يأتون الدنيا فى صخب ويفارقونها فى
ضوضاء .. (طه حسين) يرى أن المتنبي جاء العالم فى فترة مليئة
بالاضطرابات والتناقضات ، لذا كان الشخص الوحيد الذى يمكن أن
يتكيف مع هذا العالم هو شخص ملء بصراعات داخلية ممثلة ..

فى زمننا هذا قد يقابل المرء فتاة شرسة فظة الكلمات خشنة
الطباع ، فيدرك أنها تتكيف مع عصر شرس فظ خشن ..

باختصار : المتنبي كان ابن عصره فعلاً ..

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

تنظر (عبير) للقبر مرة أخيرة ثم تبتعد مع المرشد

* * *

أنا الذى نظر الأعمى إلى أديبى

وأسمعت كلماتى من به صمم ..

* * *

ذو العقل يشقى بالنعيم بعقله

وأخو الجهالة بالشفقاوة ينعم

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جواتبه الدم

* * *

فى القصة القادمة تقابل عبير نوعاً خاصاً من الصيادين ...

الصيادين الذين ضحوا بكل شئ كى يمنحونا الصحة والحياة ..

تمت بحمد الله



د. محمد عثمان الزوفري

عبقري آخر

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظن أن الليث يبتسم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم

5-19-2006

العدد القادم
الصيادون



مطابع

المؤسسة
العربية الحديثة

لتأليف والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

التمن في مصر 400
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم